

المحاضرة الأولى

تعريف الخلق موضوعه أقسامه مكانته في الإسلام

أولاً- تعريف الخلق:

الخلق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية. أي ما جُبل عليه الإنسان من الطبع. وجمعه أخلاق. وهو - أي الخلق - يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصة بها. أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان. كما أن الخلق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

واصطلاحاً: حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ و رويّةٍ. وبهذا المعنى ورد قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾
وقد يطلق الخلق على نفس المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل. وبهذا المعنى ورد قول الرسول ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).

شرح التعريف: التعريف الأخير -نعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني- واضح لا لبس فيه، فالصدق والسخاء والرحمة والعدل وحب الخير للناس... جميعها أخلاقٌ حميدةٌ، وفضائلٌ مُسَلِّمةٌ، يسعى عقلاء الناس للتخلي بها، وتربية أولادهم عليها.

وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح. فنقول في بيان ذلك :
قولهم : (حال): أي هيئة أو صفةٌ للنفس الإنسانية. وبهذا الاعتبار يقال: فلانٌ خلقه حميد. أي: الصفة التي في نفسه -والتي هي وراء تصرفاته السلوكية- حميدةٌ.

وقولهم: (راسخة): أي: ثابتةٌ بعمق. وهو ما يعني أن الأفعال تتكرر من صاحبها على نسقٍ واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه. ومن ثم كان من ينفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثاً على المحتاجين لا يوصف بخلقٍ السخاء والجود، بل لابد من تكرره منه بحيث يصبح عادةً له.

وقولهم: (من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويّة): أي من غير تكلفٍ أو مجاهدةٍ نفس، بل بسهولةٍ ويسر، وبطريقة تلقائية. يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسن الخلق والخلق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدركٍ بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحدٍ منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ، وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحدٌ".

ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

ليس جميع ما يستقر في النفس من الصفات من قبيل الأخلاق؛ بل منها ما هو من قبيل الغرائز والدوافع ولا صلة لها بالخلق. وما يميز بين الاثنين هو؛ أن الأخلاق يبحث في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي يمكن وصفها بالخير أو الشر، أو بالحسن أو القبح. والغرائز والدوافع حاجات فطرية، جبل الله الإنسان عليها كحاجته للأكل والشرب والزواج والنوم... وهذه لا تستوجب لصاحبها مدحاً أو ذمماً، كما لا يترتب على إشباعها ثواباً أو عقاباً.

فإن حصل ومُدِحَ الإنسانُ أو ذُمَّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع، كان المقصود ليس نفس الفعل، وإنما الطريقة التي اتبعها صاحبها في تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمن يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل، وإنما يُمدح أو يُذم على طريقته في الأكل. فإن أكل مثلاً مما يليه، وبهدوءٍ ومضغ الطعام جيداً، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمد على فعله هذا.

وإن أكل بشراهة، وأدخل اللقمة على اللقمة، وجالت يده في القصة، ذُمَّ على فعله ذلك. وهكذا يقال في تعاطيه مع جميع الدوافع والغرائز من شراب ونكاح ونوم وحب للمال والولد.

ثالثاً- أقسام الخلق:

يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين :
أولهما: باعتبار الفطرة والاكْتِسَاب: وينقسم إلى :

- أخلاق فطرية: جبل الله الإنسان عليها. أي أنها هبة ومنحة من الله تعالى، وليس للإنسان أي دور في اكتسابها. مثال ذلك ما جاء في حديث أشج عبد القيس - وكان وافدهم وقائدهم ورئيسهم وعبد القيس قبيلة - حيث قال له النبي ﷺ: (إِنَّ فِيكَ خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ). قال يا رسول الله: أنا أتخلقُ بهما، أم الله جبلني عليهما؟ قال: (بل الله جبلك عليهما) قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله". قال النووي: " أما الأشج فاسمه المنذر بن عانذ ... وأما الحلم: فهو العقل. وأما الأناة: فهي التثبت وترك العجلة. ... وسبب قول النبي ﷺ ذلك له، ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي ﷺ، وأقام الأشج عند رحالهم، فجمعها وعقل ناقته، ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبي ﷺ، فقرببه النبي ﷺ، وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبي ﷺ: تبايعون على أنفسكم وقومكم؟ فقال القوم: نعم. فقال: الأشج: يا رسول الله إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشد عليه من دينه. تبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم، فمن اتبعنا، كان مناراً ومن أبى قاتلناه. قال: صدقت. (إن فيك خصلتين ...) الحديث قال القاضي عياض: فالأناة: تربصه حتى ينظر في مصالحه ولم يعجل. والحلم هذا القول الذي قاله، الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب."

- أخلاق مكتسبة: يسعى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية، ومن خلال مجاهدته لنفسه. ومنه قول النبي ﷺ (إنما العلم بالتعلم)، وفي حديث آخر (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ)

ثانيتها: باعتبار القبول وعدمه شرعاً: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى :
خلق محمود: وهو حسن الأدب، وتنتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلاً وشرعاً .
خلق مذموم: وهو سوء الأدب، وتنتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلاً وشرعاً.

رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام ، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من معنى.

فقد حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة، ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة. فالرسول ﷺ أخبرنا أن (الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة. والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار)، وقال ﷺ : (دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعمتها تآكل من خشاش الأرض)، و(غفر الله لبغي في كلب سقته)، و(المرء يبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل، صائم النهار).

ويبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه ليُعلمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة. فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وجعل الرسول ﷺ الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) ولعله يشير بذلك إلى أنه ﷺ كان المتمم والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام، وما بعثوا به من القيم والفضائل، كما أخبر بذلك ﷺ فقال: (إِنْ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْبُدُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبَنَةَ). قال: (فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ). (وحسن الخلق من أكثر الوسائل التي توصل المرء إلى الفوز بمحبة الله ورسوله، والظفر بقربه يوم القيامة، حيث يقول): ﷺ : (إِنْ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا)، ولما سئل "مَنْ أَحَبَّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؟" أجاب: (أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا). (هذا من حيث مكانة الأخلاق وأهميتها بصورة عامة. وأما من حيث مكانة الأخلاق بين علوم الشرع فإن كثيراً من الباحثين المعاصرين يقسمون ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق. وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة، فقالوا: عقيدة، وشريعة، وأخلاق.

وكلا التقسيمين إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع، وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أن هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تنفك عن بعضها، وأنها متداخلة متعاضة كالبنيان يشد بعضها بعضاً. فالأخلاق لا تنفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات، وفي نفس درجتها ومستواها من الأهمية .

ففي باب العقائد نجد أن الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً فيجعل حسن الخلق علامة كمال الإيمان والتفاضل فيه، فيقول: ﴿كَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا﴾، ويضفي على التوحيد صبغة خلقية، فيعتبره من باب "العدل" وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم" وهو رذيلة خلقية، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وذلك لأنه وضع للعبادة في غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها. بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وفي باب العبادات نجد أن الكبرى منها ذات أهداف أخلاقية منصوص عليها بجلاء : فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية، وسيلة لتطهير وتزكية النفس، وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق. قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾.

والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك الممتقين، والتقوى جماع الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة، وضبط الجوارح. قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾.

وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواء في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك .

ففي مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيئاً لصاحبه من أرباح مادية. قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾.

وفي مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القذرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة، ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾، وقال جل شأنه: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾.

وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السلم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾، وقال جل في علاه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدَّقْتُم مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾. وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾. وفي السنة أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا). وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون المهديون من بعده، فقد كانوا يوصون قوادهم وأمراءهم عند تسيير الجيوش بتقوى الله، وعدم قتل غير المحارب، وعدم الإفساد والإضرار بالمتلكات، من ذلك ما جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان حين بعث جيوشاً إلى الشام، فقد خرج يتبعه ويوصيه، فكان مما قال: "إني أوصيك بعشر؛ لا تقتلن صبياء، ولا امرأة، ولا كبيراً هرماء، ولا تقطعن شجراً مثمرأ، ولا تحرقن عامراً، ولا تعقرن شاةً ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تفرقن نخلأ ولا تحرقنه، ولا تغلن ولا تجبن". وهكذا فما من مجال من مجالات الحياة يمكن للمسلم أن يعيشها بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية، وهذا الذي ذكرناه ما هو إلا غيض من فيض.

انتهاء المحاضرة الأولى

المحاضرة الثانية

أسس الأخلاق في الإسلام

يقوم النظام الأخلاقي في الإسلام على أربعة أسس هي: الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي، والأساس العلمي، ومراعاة الطبيعة الإنسانية.

أولاً - الأساس الاعتقادي:

يتمثل الأساس الاعتقادي للأخلاق الإسلامية في ثلاثة أركان هي :

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى، وبأنه خالق الكون، وخالق الإنسان، وخالق الموت والحياة. والإيمان بأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما يدور في خلجات النفس من خيرٍ أو شر. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا نُسْوِسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

الركن الثاني: الإيمان بأن الله عز وجل منذ أن أوجد الإنسان فوق هذه البسيطة هداهم لمعرفة، وعرفهم بطريق الخير والشر، والحق والباطل، من خلال الرسالات السماوية التي أرسلها للبشر. قال تعالى: ﴿فَلَنَّا أَهْبَطُونَا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَنهَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. كما أن الله سبحانه وهب الإنسان العقل والفضيلة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك تلك الحقائق، من معرفة الله، ومعرفة الحق، ومعرفة الخير والشر . ومن ثم جاء تكليفهم باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وإدراك ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم، وتجاه المخلوقات الأخرى، وكذلك معرفة ما هو محرم عليهم، ومطلوب منهم اجتنابه .

الركن الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إما نعيم، وإما جحيم. والنعيم لمن اتبع الحق، وأقدم على فعل الخير، واجتناب الشر. والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله. وكلاهما يكون بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. إذن؛ فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. والحياة الأخرى للحساب والجزاء. قال تعالى: ﴿وَنُضِعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

أهمية الأساس الاعتقادي:

هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم –المعتمد على الإيمان بالله، وبرسالته، وبالحياة الأخرى، والحساب- في غاية الأهمية، بل إنه السند الذي يعتمد عليه في إقامة النظام الأخلاقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به. ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيته، وتأثيرها في الإنسان. بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن. ثم بقدر تمكن هذا الأساس في قلب المؤمن، ورسوخه فيه، وإيمانه الصادق به، يكون الامتثال والتحلي بتلك الفضائل والقيم. وليس هذا أساساً لسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة كلها؛ ومن غيره لا يكون للحياة معنى في الحقيقة. ودليل ذلك ما نلاحظه في سلوك الوجوديين وأمثالهم من الملاحدة -الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر- حيث القلق والحيرة والاضطراب يستبد بأعماق قلوبهم، وبتفكيرهم. وأما المؤمن فهو في طمأنينة ورضاء مهما واجهته من المصائب والمشاكل. وبقدر زيادة إيمانه، وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله وقدره أتم. والسر في ذلك هو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، فأحس بالقلق والاضطراب . وإن مما يؤكد ما سبق أن أولئك الناس -من غير

المؤمنين- لا يعانون فقراً أو حرماناً أو مرضاً! وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي تجلبها العقيدة الصحيحة، والإيمان القويم. إن اعتماد الأخلاق على هذا الأساس العقدي، يضي عليها طابعاً مميزاً من القداسة والاحترام، ويوظف في صاحبه الوازع الديني (أو ما يسمى بالضمير) ويجعله أكثر استجابة لفعل الخير. وهذا ما يقر به الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستطيع معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية"

ثانياً - الأساس الواقعي:

دعا الإسلام إلى المثالية والسمو الروحي، وذم الذين أخلدوا إلى الأرض وشهواتها، إلا أن دعوته إلى المثالية هذه كانت واقعية في نفس الوقت، وكانت وسطاً بين نظرتين متطرفتين. والنظرتان المتطرفتان هما :

-الدعوات الروحية التي تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة شديدة، وذلك لأنه بهذا الاستعلاء وبهذه المجابهة، يحقق لنفسه السعادة المنشودة والسمو الروحي الذي يطمح إليه .

- الدعوات المادية (أو دعوات الطبيعيين) والتي تدعو إلى الاستسلام للطبيعة، والاستجابة لها، لأن سعادة الإنسان -من وجهة نظرهم- إنما تتحقق من خلال هذه الاستجابة، والإخلاء إلى الأرض، ومن ثم فإنهم يتجاهلون متطلبات الروح. وأما الإسلام فكان موقفه من الطبيعة وسطاً معتدلاً بين هاتين النظرتين، وقد تجلى ذلك في: دعوته الإنسان إلى أن يكون سيداً على نفسه، فيضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وأن يكون كذلك سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع، وعدم التصادم معها؛ وذلك عن طريق اتخاذ قواعد للسلوك تنسجم تمام الانسجام مع القوانين الأساسية للحياة البشرية. وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

ثالثاً - الأساس العلمي:

ونعني به القوانين الأساسية للحياة البشرية، والتي أقام الإسلام نظامه الأخلاقي عليها وهي: (قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي). وفيما يلي نتناول هذه القوانين بشيء من التفصيل.

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينمبها سلوكاً أخلاقياً مشروعاً ومطلوباً. كما أنه اعتبر كل سلوك يصاد الحياة، أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقي، ومن ثم فهو مرفوضٌ ومحرم . ومن هنا كان القتل حراماً؛ لأنه سلوكٌ غير أخلاقي، وكذا تهديد الآخرين وإخافتهم، أو التحاسد والتباغض والتدابير، كلها محرمة، ويعتبر سلوكاً غير أخلاقي . فالإسلام جاء بتشريع كل ما من شأنه احترام حياة الناس، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودمائهم، والسعي لتحقيق ما فيه نفعهم.

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثم شرع الزواج وحث عليه، ونهى عن التبتل أو الرهبانية، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا

اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: (أنتم الذين قتلتم كذا وكذا، أما والله إنني لأخشاكم لله وأنتقاكم له، لكنني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)، كما حث على حسن اختيار الزوجة، فقال ﷺ: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وانكحوا إليهم)، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد). كما أن الإسلام - من جهة أخرى- منع كل سلوك من شأنه أن يحد أو يعوق استمرار التناسل، كالتناسل كالتناسل، أو الخصاء، لما فيه من المنافاة مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "كنا نغزو مع النبي ﷺ ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك.

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى السعادة، والإقبال على الحياة بمحبة وانسراح، وينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً. كما أنه اعتبر -من جهة أخرى- كل سلوك يضاد الحياة السعيدة، أو يضاد العقل، بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس، أو متشامماً قلقاً، أو يضر بعقله، أو يجعله مريضاً أو مستسلماً للجهل والخرافات، فإنها جميعاً تعد سلوكاً غير أخلاقي. ومن ثم فقد حث الإسلام على العلم، وصلة الرحم، ومحبة الآخرين، والرحمة بهم، والرضا بقضاء الله وقدره. ففي الحديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، وفي آخر: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له)، فيتلقى المصائب بالرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، وأن ذلك هو الخير، وأن الحكمة كل الحكمة فيه، ولو خفي عليه وجه ذلك، فيحيا حياة سعيدة، وهذا ما لا يكون إلا للمؤمن. كما حرم الإسلام الانتحار، وتعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يضر الإنسان في بدنه أو عقله. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. ومثل هذه النصوص كثيرة جداً، وعليه فإن الإسلام يعد الخروج على القوانين تعدياً وخروجاً عن جادة الحياة المستقيمة.

رابعاً: مراعاة الطبيعة الإنسانية:

وهذا هو الأساس الرابع الذي يبني الإسلام نظامه الأخلاقي عليه، ونعني به أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه روح وجسد، وعقل وشهوة، وقلب ومشاعر، وعواطف، وأن هناك صراعاً بين طبيعة الإنسان وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض والتراب الذي خلق منه، فينساب للأهواء والشهوات، وروحه العلوية التي هي من نفع الإله، وتدعوه إلى سمو والرفي والمثالية. ومن ثم فقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين في الإنسان، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، وبصفته الكائن الأشرف على ظهر هذه البسيطة، وبصفته من أتباع خاتمة الرسالات السماوية. ولا يخفى أهمية هذا الأساس في الدراسات الأخلاقية، لما بين سلوك الإنسان، وطبيعته التي جبله الله عليها من صلة وثيقة، ولأن نجاح أي نظام أخلاقي يتوقف على مدى انسجامه مع واقع هذه الطبيعة البشرية.

انتهاء المحاضرة الثانية

المحاضرة الثالثة

خصائص الأخلاق الإسلامية

تمتاز الأخلاق الإسلامية بجملة من الخصائص تميزها عن غيرها من الأنظمة الأخلاقية، وهي:

أولاً- الابتناء على عقيدة الإسلام:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما. والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخلق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حسن الخلق، وذلك لأن حسن الخلق يقتضي أول ما يقتضي شكر المنعم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخلق. يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجمالها ثمرة حسن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ...﴾، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا... وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ...﴾. من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت). وقال ﷺ: (لنا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). وقال ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً).

ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنيا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثم فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير، أو ينفرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ثم يذكر بعد ما يكلفهم به، مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، و﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قَوْلاً سَدِيداً﴾. وقد وضع صاحب الرسالة ﷺ أن الإيمان القوي، يلد الخلق القوي حتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقده، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجل الصفيق الوجه، المعوج السلوك، الذي يقترب الرذائل غير آبه لأحد، يقول رسول الإسلام ﷺ في وصف حاله: (الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)!. والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول ﷺ: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل ومن يا رسول الله قال الذي لا يأمن جاره بوائقه). وتجد الرسول ﷺ عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو ومجانبة الثرثرة والهدر... وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهداتها حتى تؤتى ثمارها معتمداً على صدق الإيمان وكماله..".

إذا فالدين هو مصدر الأخلاق الفاضلة، وهو الرقيب عليها، وهو المقوم لها إذا انحرفت.

تتنوع الأخلاق الإسلامية وتتنوع لتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

- 1- **خلق مع الله ومع النبي ﷺ:** وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تبين أن خلق المسلم مع الله ومع النبي ﷺ يتمثل في السمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به. من ذلك قول الله تعالى: **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾** ، وقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**. وكذلك تعظيم شعائر الله (بتعظيم كتابه، وتعظيم بيوته، وتعظيم حرَماته) والنصح لله وكتابه ورسوله. عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : **﴿الدين النصيحة﴾** قلنا: لمن؟ قال: **﴿لله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم﴾**. وتعني أن عماد أمر الدين النصيحة. وتكون النصيحة لله بتقديم حقه على حق الناس. وكتابه بتعلمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه. ورسوله بتعظيمه ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتران به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومجبة أتباعه.
 - 2- **خلق مع أولياء الأمور:** ويتمثل في طاعة أوامره في المعروف، وبذل النصح لهم. قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**. وكما في رأينا الحديث السابق أن من الدين: النصيحة لأئمة المسلمين. وتعني إعتابهم على ما حملوا القيام به من المسؤوليات، وتبنيهم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوب وأطف عبارة.
 - 3- **خلق مع عامة المسلمين:** النصوص في بيان ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع المسلم، من الأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية أكثر من أن تحصى. من ذلك قول النبي ﷺ : **﴿الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ... بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ﴾**. وفي الحديث السابق: النصيحة لعامة المسلمين. وتعني الشفقة عليهم، والسعي فيما ينفعهم، وكف الأذى عنهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه.
 - 4- **خلق مع غير المسلم:** وردت نصوص عديدة تبين ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع غير المسلم من العدل والإحسان وحسن المعاملة، من ذلك قوله تعالى: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** ، وقول النبي ﷺ : **﴿ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقتِهِ أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ فأنا حجيجه يوم القيامة﴾**. والمعاهد من يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.
 - 5- **خلق مع الكبير والصغير:** يقول النبي ﷺ : **﴿ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا﴾**. وقوله: **﴿ليس منا﴾** يدل على عظم وخطورة هذه الجريمة الأخلاقية. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم وسلوكهم في الحياة. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين وسلوكهم، فليحذر من عاقبة أمره، والطريق الذي اختاره لنفسه.
- وهناك خلق مع الوالدين، ومع الأبناء والبنات، ومع الزوج والقرابة، ومع الضيف والمعلم والصديق، ومع البهائم والجمادات ... وهكذا، يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخلقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقي أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم... الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا تتورط مع اليهود أو النصراني في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: **﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِنَّا بَاتِيهِمْ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالْهِنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** ، واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع العاد: **﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾** . وحدث أن يهودياً كان له دينٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطل!! فرأى عمر ابن الخطاب أن يُؤدب هذا المتناول على مقام الرسول، وهم بسيفه يبغى قتله. لكن الرسول ﷺ أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذار، تأمره بحسن التقاضي، وتأمرنى بحسن الأداء)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر. قال ﷺ : (دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً فمجوره على نفسه). وبهذه النصوص، منع الإسلام أبناءه أن يقتربوا أية إساءة نحو مخالفهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله؟ فلما جاء قال: أهديتم لجاننا اليهودي؟ أهديتم لجاننا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني

بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)... ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخلق وحده... ومن أقوال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة. ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة). إن الخلق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها“.

ثالثاً- الثبات:

يقصد بالثبات أن الفضائل الأساسية للمجتمع من صدق ووفاء وأمانة وعفة وإيثار مرتبطة بالنظام العام للشريعة، وهي أمور لا يستغني عنها مجتمع كريم مهما تطورت الحياة وتقدم العلم، بل تظل قيماً فاضلة ثابتة، لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية. ولعل السبب الذي يجعل هذه الأخلاق ثابتة هو :

- 1- **أنها مرتبطة بالفطرة البشرية**، وهي تتصف بالثبات، كما في الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة). غير أن ذلك وحده لا يكفي، فكم من الأمور التي هي في أصلها نابعة من الفطرة إلا أنها تغيرت وانحرفت بفعل الأهواء والمصالح! ومن هنا جاءت أهمية السبب الآخر.
- 2- **كونها نابعة من الدين** الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح شأن الإنسان ويحقق له السعادة والخير. قال تعالى: ﴿أَنَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف. ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفة عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى، بتغير مسوغات وجودها، وليس كذلك الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير.

رابعاً- الجمع بين الواقعية والمثالية:

فأما كون الأخلاق في الإسلام واقعية فتعني أنها؛ عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد تطبيقها وتجسيدها في حياته. وأما كونها في الوقت ذاته مثالية أيضاً فتعني أن في الناس من تتوق نفسه إلى معالي الأمور، ولا يرضى لنفسه بأن يكون كعامة الناس. فهو أبدأ يتوق إلى المعالي، وله نفس أبية تسعى دائماً للتجلي بالفضائل والقيم السامية، ففسح الشرع في ذلك.

فإذا الإسلام راعى بتشريعه استعدادات هذا وذلك، ولم يحمل الناس على ما لا يطيقون، أو ما يمكن أن تملئه نفوسهم وتتقاصر عنه. ومن ثم فقد شرع العدل، بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، غير أنه حثه في الوقت ذاته على الإحسان، بأن يصفح ويتجاوز ويضحي، وهي مرتبة فوق العدل. قال تعالى في تقرير قاعدة العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وقال جل جلاله في تقرير مبدأ المثالية والإحسان: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

والأخلاق الإسلامية في هذا يختلف عن الدعوات المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون في كتابه الجمهورية الفاضلة، إذ إنها مما لا يطيقها معظم الناس، ولا تستقيم معها حياتهم، وسرعان ما يملونها، وتسأم من فعلها نفوسهم لما فيها من تكلف شديد. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. ويقول ﷺ: (عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُ حَتَّى تَمَلُوا).

وتعني أن الأخلاق الإسلامية وسط بين طرفين متضادين. وتتجلى هذه الوسطية والاعتدال في تلبيته لمختلف حاجات الإنسان ورغباته ولكن بعد ضبطها بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير. من ذلك على سبيل المثال :

- 1- **الحكمة:** فقد اعتبرها الإسلام فضيلة مطلوبة, وتأتي بين رذيلتين منكرتين, هما: الخب والبه. قال تعالى في الثناء على الحكمة: **﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**. والخب هو: المبالغة في الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن. والبه هو: المبالغة في السذاجة والسفه.
 - 2- **السخاء:** وهو خلق كريم ويقع بين رذيلتين, هما: الإسراف والتقتير. قال تعالى: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾**, وقال: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾**.
 - 3- **الشجاعة:** وهي خلق كريم ووسط بين رذيلتين هما: التهور والجبن. والتهور هو: الزيادة في الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾**. والجبن هو: المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه الرجولة والمروءة. قال تعالى في وصف المنافقين: **﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾**.
 - 4- **العفة:** وهي خلق كريم, وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره والخمود. والشره هو: المبالغة في طلب الشهوة واللذات. والخمود هو: قصور الشهوة عن دفعه نحو تحصيل أسبابها.
 - 5- **الحياء:** وهو خلق كريم, ويأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة أو صفاقة الوجه من جهة, والخور والمهانة من جهة أخرى.
 - 6- **التواضع:** وهو خلق كريم, ويأتي وسطاً بين رذيلتي الكبر والعلو من جهة, والدنّة والحقارة من جهة أخرى.
- وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام أو أقرها, إلا ونجدها وسطاً تستجيب لدواعي الفطرة في الإنسان, وتحقق له ما فيه المصلحة والخير.

انتهاء المجازة الثالثة

المحاضرة الرابعة

وسائل اكتساب الأخلاق

مقدمة :

ذكرنا فيما تقدم أن من أقسام الخلق ما هو فطري. بمعنى أن في الناس من تشمله العناية الإلهية فيولد سليم الفطرة، كامل العقل، حسن الخلق، عالماً مؤدباً بغير معلمٍ أو مؤدبٍ، كما هو الحال في الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم بفضلهم قداوات صالحة تمثل قمة الكمال البشري. وهناك من الناس من يمن الله عليه ببعض الصفات الخلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حين أثنى عليه النبي ﷺ وقال: (إن فيك خصلتين يجبهما الله ورسوله، الحلم والأناة). فسأل النبي أهما من كسبه، أم جبله الله عليهما؟ فقال له النبي ﷺ: (بل الله جبلك عليهما). كما أن من الخلق ما هو مكتسب، يُحصَله المرء بجده واجتهاده، ومن خلال وسائل معينة. يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً- التدريب العملي:

إن أهم الوسائل التي تعين المرء على اكتساب الأخلاق التدريب العملي، وذلك من خلال مجاهدته نفسه، وحملها على الأعمال التي يتطلبها الخلق المطلوب. فمن أراد أن يُحصَل لنفسه خلق الجود مثلاً، فإن سبيله إلى ذلك تكلف تعاطي فعل الجود -وهو بذل المال- في البدايات. ثم يستمر على ذلك البذل، ويطلب نفسه به، ويواظب عليه تكلفاً، مجاهداً نفسه، حتى يصبح ذلك خلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به جواداً. ومن أراد أن يُحصَل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، يجاهد نفسه فيه، ويتكلف إلى أن يصبح ذلك خلقاً له وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً. وفي بيان هذا الدور المهم للتدريب العملي ورياضة النفس على الفضائل يقول النبي ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ). أي أن من درّب نفسه وحملها على ما يريد، وجد الاستجابة له بمشيئة الله. فالبداية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله تعالى. مثله في ذلك مثل البدن. فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخلق ناقصة، قابلة للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم. ويمكن توضيح ذلك من خلال مثال ملموس من واقع حياتنا، وهو رغبة أحدنا في أن يصبح خطاطاً. فإننا جميعاً نحكم بأن سبيله إلى تحقيق هذه الغاية هو أن يتعاطى الخط، ويواظب عليه مدة طويلة، ويقلد الخطاطين في خطهم، ويتشبه بهم تكلفاً في البداية، حتى يصير الخط الحسن صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه طبعاً وسجية دون تكلف. ومن أراد أن يصبح فقيهاً، فإن سبيله إلى ذلك تعاطي فعل الفقهاء، من كثرة القراءة في كتب الفقه، وتكرار النظر فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس. فإذاً يكون تكلف الفعل الخلقى ابتداءً، ثم يصبح طبعاً انتهاءً. وهذا ناتج عن العلاقة المتبادلة بين القلب والجوارح. حيث إن كل صفة تظهر في القلب ينعكس أثرها على الجوارح، فتتحرك وفقها. وكل فعل يجري على الجوارح ينعكس أثره على القلب، ويؤثر فيه. فكل منهما يؤثر في الآخر، ويتأثر به. ومما ينبغي التنبيه له أن مرور الزمن وكثرة التدريب يُكوّنان لدى المرء شعوراً باللذة عند تعاطيه لهذا الخلق. وعندها فقط يكون قد أصبح خلقاً له. فالسخي إذاً هو الذي يشعر باللذة لدى بذله المال، دون الذي يبذله عن كره. والمتواضع هو الذي يشعر باللذة لدى فعله التواضع، ويواظب عليه مواظبة المشتاق. وفي عبادته ومناجاته لله يشعر براحة وطمانينة لا مثيل لها. يؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ: (وجعلت قرّة عيني في الصلاة). وهذا الشعور بلذة الطاعة وكره المعصية يزداد بكثرة المداومة والاستمرار. ومن ثمّ كان جواب النبي ﷺ لمن سأل: أي الناس خير؟ قال: (من طال عمره، وحسن عمله). وهذا ما كان يرغب الأنبياء والصالحين من عباد الله في طول العمر.

وذلك من خلال حسن اختيار الأصحاب والأصدقاء الذين يكونون عوناً له على فعل الخير، ومجانبة الشر. إذ كما قال النبي ﷺ: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)، والطبع يسرق من الطبع الخير والشر معاً. كما أن على المرء أن يحرص على مجالسة الصالحين، مجالسة من يذكره بالله، ويرغبه في عمل الخير، وبما عند الله تعالى، وينفذه من عمل الشر، وما يجلب له السخط والغضب من الله تعالى. وقد مثل الرسول ﷺ لذلك بقوله: (مثل المجلس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكبر، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكبر إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة). يقول الإمام النووي رحمه الله في تعليقه عليه: "في الحديث تمثيلة ﷺ المجلس الصالح بحامل المسك، والمجلس السوء بنافخ الكبر، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يفتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة" ويقول الشيخ ناصر السعدي رحمه الله: "اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم. ومثل النبي ﷺ بهذين المثاليين، مبيناً أن المجلس الصالح: جميع أحوالك معه وأنت في مفهم وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك إما بهبة، أو بعود. وأقل ذلك مدة جلوسك معه، وأنت تفرير النفس برائحة المسك. فالخير الذي يصيبه العبد من جلوسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر. فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك، فيجتك على طاعة الله، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه. والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضاً إلى الخير أو إلى ضده. وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا. وهم مضررة من جميع الوجوه على من صاحبهم، وشر على من خالطهم. فكم هلك بسببهم أقوام! وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون! ولهذا كان من أعظم نعم الله على العبد المؤمن أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبد أن يبتليه بصحبة الأشرار. صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين. وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين. صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة. وصحبة الأشرار تحرمه ذلك أجمع: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أُتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾. إن أقل ما تستفيد من المجلس الصالح - وهي فائدة لا يستهان بها - أن تتكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعايةً للصحبة، ومناقسةً في الخير، وترفعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنتفع محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك. وتلك أمور لا تباشر أنت مداقتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم. وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله" ويؤكد ما أسلفناه من أثر البيئة الفاسدة أو الصالحة على المرء، قول النبي ﷺ: (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكم له مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فاتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين؛ فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فمأسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة). فقد طالبه الرجل العالم بتغيير بينته الفاسدة. قال النووي: "قال العلماء: في هذا استجاب مفاصلة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخذان المساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين، ومن يقتدى بهم وينتفع بصحبته".

ثالثاً- القدوة الحسنة:

الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ومحاكاته، فالضعيف يقلد القوي، والصغير يقلد الكبير، والفقير يقلد الغني، ممن نال إعجابهم، واستحوذ على رضاه. وهذا أمر واقع ومحسوس في دنيا الناس، لا يتجادل فيه اثنان. وقد قص الله علينا في كتابه العزيز حال المشركين، ونبهه إلى أن الذي قادهم إلى الضلال والكفر إنما هو تقليدهم للأباء والأسلاف من غير تبصّر وإعمال للعقل. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ . فالمنكر عليهم ليس مجرد التقليد، وإنما التقليد القائم على التبعية العمياء، وعلى تعطيل العقل! ولو كان قائماً على الفكر وحسن الاختيار لكان مقبولاً، بل مطلوباً كما في سير الأنبياء السابقين عليهم السلام التي قصها الله علينا، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فامر نبيه محمداً ﷺ بالافتداء بهم في ملاقاتهم لأنواع الابتلاء، وصبرهم على الشدائد وتحملهم للأذى في سبيل الدعوة، فما كلوا ولا ملوا ولا ينسوا). كما أن الله سبحانه قص علينا كثيراً من جوانب حياة الرسول (كتعظيمه لله، ومحبته وإخلاصه له، وخشيته منه، ورافته ورحمته بالعباد...) وأثنى على أخلاقه العظيمة، وأمر الأمة المسلمة بالافتداء به ﷺ، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ . لقد اختاره الله قدوة ومثلاً كاملاً للطامحين في الوصول إلى الكمال البشري. ولئن انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه، فإن سيرته العطرة قد حفظت لنا، وفيها ما يكفي أن يكون شاهداً على سمو روحه، ورفعة أخلاقه، لنتمكن من التماسي به، وتقوم علينا الحجة. إن الشخصية القيادية تفرض نفسها على الآخرين، وتنتزع منهم الإعجاب رغماً عنهم. وإن ميادين الحياة التي يمكن من خلالها أن تفرض هذه الشخصية أو تلك نفسها على الآخرين كثيرة جداً، فهذا في الشجاعة، وذاك في سداد الرأي والحكمة، وآخر في التربية، وآخر في الإحسان والإيثار وآخر في كظم الغيظ، وهكذا.

وإن الأسباب التي تدفع الناس للتأسي بالقدوة في اكتساب الفضائل كثيرة، منها:

- القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب الناس، وهو ما من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من هذا التقدير والإعجاب إلى تقليد القدوة ومحاكاته لعله يصبح يوماً ما مثله، فيندفع لتقليده، ومع مرور الوقت يتحول ذلك لديه إلى خلق مكتسب.
 - إن وجود القدوات الصالحة، والنماذج الطيبة الراقية، يعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل أمر ممكن، وهو ما يدفعهم إلى محاولة التخلق بمثل أخلاقهم.
 - النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية، فهما حثّ أحداً الناس على الصبر والتضحية سيبقى تأثيره قليلاً بالمقارنة مع موقف عملي يُبتلى فيه أحداً، فيظهر الصبر والجدل والتضحية. وكثيراً ما يتردد على الألسن مقولة: "الرجال مواقف". وموقف واحد قد يرفع المرء أو يسقطه .
- إن الناظر في سير العظماء لن يجد لهم بالضرورة خطباً بليغة، أو محاضرات منمقة، وإنما يجد المواقف. فمن ينظر إلى سيرة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم مثلاً، فإنه سيجد أن أكثر ما يُعرف ويُشتهر عنهم، مواقفهم الحاسمة في نصره الدين، ووقوفهم الحازم في وجه أعدائه. إن أكثر ما يعرفه الناس عامة من سيرة أبي بكر رضي الله عنه، صحبته للنبي في هجرته، وتضحيته ببذل النفس والمال فداءً للرسول ﷺ ولدعوته. وكذا ثباته على الحق برباطة جأش يوم وفاة النبي ﷺ، وقوله في الصحابة: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ومثل ذلك وقفته الحازمة في وجه المرتدين وفي وجه مانعي الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ، وقوله: أينقص الدين وأنا حي، والله لو لم يخرج إليهم أحد لقاتلتهم بسيفي، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . وإن أكثر ما يُعرف من سيرة الإمام أحمد بن حنبل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرته للحق حتى قال فيه علي بن المديني رحمه الله: "إن الله أمر هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة". ومما قيل في التأكيد على الأثر البالغ للفعل: "عمل رجل في ألف رجل، أبلغ من قول ألف رجل في رجل". إن من واجب المصلحين والدعاة المربين إبراز النماذج الصالحة من أسلافنا من الصحابة والتابعين، وسير العلماء الربانيين، والزهاد الاتقياء العابدين، والقادة الأفاضل الفاضحين، والمربين الناجحين؛ لتتحرك الهمم نحو التماسي بهم، والسير على نهجهم، والتخلق بأخلاقهم.

رابعاً- الضغط الاجتماعي:

ونعني به المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويلزمهم بفضائل الأخلاق. وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذاك، يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام. فإن أقدم على تصرف غير أخلاقي، فإنه سيجد من يحاسبه على سلوكه ذلك، وسيشعره بأن سلوكه غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده. ويوماً بعد يوم مع هذه الرقابة من المجتمع، ومع الضغط الذي يشكله على السلوك المنحرف، فإن صاحبه سيهجره، وسيبدله بسلوك مقبول، يجلب له الرضا والتقدير ممن حوله، وسينتهي الأمر باستقامة خلقه. ومما يجدر ذكره أن الضغط الاجتماعي يختلف عن البيئة الصالحة التي سبق الحديث عنها. إذ البيئة تقتصر على أولئك الذين يعايشهم المرء بشكل مباشر، وبصورة مستمرة. وأما الضغط الاجتماعي فهو أعم؛ إذ إنه يمتد ليشمل المجتمع كله، بمختلف طبقاته وأطيافه وفئاته، ومن خلال مختلف وسائل الإعلام من جرائد ومجلات وقنوات وإذاعات وخطب ومواعظ وحوارات، فيكون مسؤولاً أمامها جميعاً بما تكوّن من رأي عام من القراء والمستمعين على امتداد البلاد أو العالم الإسلامي لمحاسبة المنحرف. وهناك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة توصل لهذه المسؤولية، نذكر منها: قول الرسول ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصَنَعُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْبَلَهُ وَشَرِيْبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللَّهِ، تَتَأَمَّرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَتَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَتَأَخَذُونَ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَتَتَأَطَّرُهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَتَتَقَصَّرُهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا). فالحديث يبين وجوب الاستمرار في إنكار المنكر، واستمرار الضغط على مرتكبه من مختلف أبناء المجتمع حتى يرتدع ويكف عن فعله الشائن، وإلا حل بنا ما حل ببني إسرائيل من العقوبة والعياذ بالله. قوله ﷺ: (مِثْلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَمُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَصَالُوا: تُوْنَا خَرَفْنَا فِي نَصِينَا خَرَقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا). ومعنى القائم في حدود الله: المدافع عنها. وهو عكس الواقع فيها. والحديث يؤكد أيضاً مبدأ المسؤولية الجماعية، ويشبه أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم بالراكبين في سفينة واحدة، حيث يجمعهم مصير واحد، وأن الفرق والهلاك إذا حل بهم فلن يقتصر على البعض دون البعض بل يشمل الجميع، المنحرف لانحرافه، وغيره لسكوته عن الإنكار، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾. ومع مرور الزمن والكف عن الأخلاق السيئة خوفاً من ضغط المجتمع تختفي تلك الأخلاق من حياة أصحابها، ويحل محلها الأخلاق الحميدة.

خامساً- سلطات الدولة:

ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة. فإنها حين تحاسب المنحرف وتعاقبه على تصرفاته غير الأخلاقية تجعله يكف عنها. وفي ذلك يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه: "إن الله ليبرع بالسلطان ما لا يبرع بالقرآن". أي أن بعض الناس قد لا تردعه نداءات كتاب الله، وما فيه من الترغيب والترهيب، لأن الضعف قد استبد باليمانهم، وأصبحت قلوبهم ميتة أو قاسية. وهؤلاء إنما يردعهم الرهبة من السلطان، والخوف من العقوبة. ويوماً بعد يوم، ومع مرور الزمن، يتحول هذا الامتناع القسري عن فعل المنكر إلى خلق لصاحبه، ويحسن خلقه.

انتهاء المحاضرة الرابعة

المحاضرة الخامسة الإلزام والمسؤولية والجزاء الأخلاقي

أولاً : الإلزام الخلفي:

- تعريف الإلزام الخلفي:

الإلزام بصورة عامة هو الفرض والإيجاب. أي؛ ما فرضه الشرع وأوجبه علينا من أمرٍ أو نهي، سواءً أكان ذلك في باب العقائد، أم العبادات، أم المعاملات، أم الأخلاق... وفي باب الأخلاق يمكن أن يُعرّف الإلزام بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلقي. أو بعبارة أخرى: أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلفين بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتناب خُلُقٍ مذموم. أي أنه أمرٌ من الله سبحانه، أو من رسوله ﷺ، للبالغ العاقل، يوجب عليه التحلي بخُلُقٍ محمودٍ كالصدق والعدل ونحوها، أو الابتعاد والتخلي عن خُلُقٍ مذمومٍ كالكذب والرياء ونحوها.

- مصادر الإلزام الخلفي:

إن مصدر الإلزام الخلفي -كغيره من الأحكام الشرعية- إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِنَّا لِلَّهِ﴾، وقال جل جلاله: ﴿إِنَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. والعقول وإن كانت تدرك أحياناً الحسن والقبح في الأشياء؛ كأن تدرك أن الصدق حسنٌ والكذب قبيحٌ، والأمانة حسنةٌ، والخيانة قبيحةٌ، إلا أن مناط الثواب والعقاب هو الشرع، وليس العقل، فإن فالتشريع حقٌ لله وحده. ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقال أيضاً: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. فاتبعنا نبيينا محمد ﷺ، إنما هو استجابةٌ وامتثالٌ لأمر الله سبحانه. وقد بعثه الله إلينا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقام بهما الحجة على العباد. قال تعالى: ﴿رَسُولًا مَّبْشِرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

- العوامل التي تعين على تحقيق الالتزام:

ذكرنا أن مصدر الإلزام هو الشرع، غير أن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس، وهي متفرعة عن الشرع، ومنضبطة به، وتتمثل في عوامل داخلية: (وهي: الإيمان والعقل والفضرة والضمير الخلفي). وعوامل خارجية: (وهي: المجتمع والسلطة الحاكمة) العوامل الداخلية للإلزام: وتتمثل كما أسلفنا آنفاً في:

- 1- **الإيمان بالله وباليوم الآخر:** إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والتضحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾. يقول ابن القيم رحمه الله: "الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والأمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، واثمار صاحبه وانتهاؤه".
- 2- **العقل:** وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أقدم عليه. وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجم عنه. أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطيله يقوده إلى العكس. وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. يقول ابن القيم رحمه الله: "أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفضائل استحساناً للصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخلق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نوابغ الحق، وقري الضيف، وحمل الكلل، ونحو ذلك. ووضع في العقول والفضائل استقباحاً أصداد ذلك".

- 3- **الفطرة:** الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالفطرة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفطر السوية، وتسعى لتتحلي بهار، على العكس من أضداد تلك الصفات كالكسفة و صفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفطر السليمة تستبجها وتنفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، ويقول الرسول ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء). ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾". يقول ابن القيم: "والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة، أحدهما: أن خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها... فإذا تركت النفس وفطرتها لم تُؤثر على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد كمال ربوبيته، وكان أحب شيء إليها، وأطوع شيء لها، وأثر شيء عندها".
- 4- **الضمير أو الوازع الديني:** ونعني به ذلك الشعور الخفي الذي تحس به في أعماق نفوسنا، ينادينا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه. وحين نستجيب له يفمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فنشعر بالانتقاص والألم النفسي (ويسمى بوخر الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد. وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سني حياته، ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به. ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي. ولعل في قول النبي ﷺ: (الْبِرُّ حَسَنُ الْخَلْقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)، ما يشير إلى هذا الضمير الخفي، أو الوازع الديني الذي يكون رقيباً على تصرفات المسلم، فيدفعه إلى طيب الأفعال والأقوال، ولو لم تكن نصوص الشرع أمرة بهار، وتكفه عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهية عنها.

ثانياً : العوامل الخارجية:

- 1- **المجتمع:** أمر الله سبحانه جماعة المسلمين أن يراقبوا سلوك الأفراد داخل المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشارد منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبوه إذا ارتكب من المحظورات ما يستدعي معاقبته ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ، ويقول الرسول ﷺ: (من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان). فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم؛ فتأمرهم بالمعروف، وتنهاتهم عن المنكر، وتأخذ على يد الظالم والعايب، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرورها. قال تعالى محذراً من ذلك: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.
- 2- **السلطة الحاكمة:** إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (والمتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حمل الناس على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف. وهو ما عبر عنه الإمام الماوردي رحمه الله بأربع كلمات فقال: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا". وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وسياسة الدنيا تكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها. ولا شك أن الإمام (أو ولي الأمر) لن يستطيع أن يحقق ذلك كله بمفرده، بل لا بد من معاونة الجهاز المشارك له في إدارة البلاد، والذي يمثل بمجموعه السلطة الحاكمة.

- خصائصه الإلزام الخُلقي:

ز الإلزام الخلفي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها : أنه إلزام بقدر الاستطاعة. فلا تكليف إلا بما يُطاق. قال تعالى: ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا لَنَا وَسُهْبًا﴾. وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخلق القويم . أنه إلزام بما فيه يسر على الناس، ويسهل تطبيقه. ومن ثم فلا تكليف بما فيه حرج أو مشقة لم تعدها نفوس الناس. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ . وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. أنه إلزام روعيت فيه الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعذار من العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ . وكما في الترخص بالتلفظ بالكفر باللسان مع بقاء القلب مطمئنًا بالإيمان. قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ لَنَا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

ثانياً: المسؤولية الخلقية:

تعريف المسؤولية: إذا صدر الإلزام من طرفٍ نتج عنه بالضرورة مسؤولية الطرف الآخر عما أُلزم به. وإلا لم يكن إلزاماً بل اختياراً، ويكون تسميته بالإلزام خطأً. وقد عرفت المسؤولية بأنها: "التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً". أو: تحمل الشخص النتائج المترتبة على ما التزم به من قول أو عمل أو ترك .

شروط المسؤولية: ليس كل إنسان مسؤولاً عن أفعاله وأقواله، بل هناك شروط لا بد من توافرها حتى تترتب المسؤولية على الفاعل، ويمكن إجمالها فيما يلي :

- **البلوغ:** وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لتصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع.
- **العقل:** وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنه لا يعقل أمر الشرع ونهيه. ودليل الاثنين قول النبي ﷺ: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ).
- **الاختيار:** أي أن يكون العمل نابغاً من إرادته، حراً مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً على العمل، لم يتحمل صاحبه مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ لَنَا مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ . فبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجد قلبه مطمئناً بالإيمان. وفي الحديث أيضاً يقول الرسول ﷺ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه).
- **النية:** إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على نية وقصد المرء دون ظاهر سلوكه. بمعنى أن العمل لو صدر من الشخص بإرادته، ولم يكن ينوي النتيجة التي تترتب عليه، فإن الله سبحانه يحاسبه على نيته الحقيقية وليس على ظاهر عمله. فمن تصدق على فقير ونيته السمعة والرياء فإنه لا ثواب له عند الله، ومن رمى صيداً فأصاب إنساناً، فإن الله لا يؤاخذُه على فعله هذاز، ولا يحاسبه على أنه قاتل لإنسان معصوم الدم. وأما نحن في الدنيا فنحكم بظاهر الفعل أو القول؛ لأن النية من الأمور الخفية التي لا يطلع عليها غير الله سبحانه. قال الله تعالى في بيان هذه الحقيقة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُلُوِّ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. واللفو قول: لا والله. بلى والله. لا يريد لحلف حقيقة، بل سبقه إليه لسانه لتعوده عليه. فهذا لا يؤاخذ، وإنما يؤاخذ من يريد اليمين. عازمٌ عليه قلبه. ويقول النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).
- العلم بالعمل المطلوب منه وبحكمه الشرعي هل هو محرم أم واجب. أو إمكانية العلم بذلك، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال. وإلا فلو لم يسأل عن الحكم، ولم يسع لتعلمه، فإنه يؤاخذ قطعاً؛ لأن المرء لا يُعذر بجهله. والجهل عذر في حق من لم تبلغه دعوة الإسلام، ولم يمكنه التعرف عليه، ولا السؤال عنه. ولم يكن منه التقصير، فهذا هو الذي لا يؤاخذُه الله، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.
- كون العمل مما يطاق، أي أنه بمقدوره فعل الشيء أو تركه، وإلا فمتى كان العمل فوق طاقته لم يحاسبه الله عليه، وتسقط مسؤوليته عنه. قال تعالى: ﴿لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا لَنَا وَسُهْبًا﴾.

خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية (أو فردية) بالدرجة الأولى. بمعنى؛ أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره أياً كان، ومهما كانت درجة قرابته. فلو قتل الأب شخصاً وحُكِمَ عليه بالقصاص، لم يجز الاقتصاص من الولد ولو رضي، بل القصاص على القاتل فحسب. ولو شرب رجل خمرًا لم يجلد ولده أو والده عنه ولو طلبوا ذلك ورضوا به. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾، وقال تعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. غير أن هناك مسؤولية أخرى ملقاة على عاتق الفرد، أو مسؤوليات متعددة، منها: المسؤولية التقصيرية عن مَنْ هُم تحت ولايته، كالأب في الأسرة، ومدير المدرسة في مدرسته، وضابط الجيش في قطعه، ومدير الشركة في شركته، وولي الأمر فيما تحت ولايته. يقول ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته). ومنها ما يمكننا أن نسميها المسؤولية الاجتماعية -أو التكافلية- وهي مسؤولية كل فرد مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف. يقول ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان).

أنواع المسؤولية:

تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

- المسؤولية الأخلاقية المحضة:** وتعني التزام المرء أمام نفسه وضميره بالإتيان بشيء أو الابتعاد عنه.
- المسؤولية الاجتماعية:** وتعني التزامه تجاه أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.
- المسؤولية الدينية:** وتعني التزامه أمام الله تعالى.

ثالثاً : الجزاء الأخلاقي:

تعريف الجزاء الأخلاقي: يُقصد بالجزاء الأخلاقي: المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي. سواءً أكان ظاهراً كالسجن والضرب، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءً أكان في الدنيا كالعقوبات المقررة شرعاً على الجنح والجرائم، أم في الآخرة كنعيم الجنة أو عذاب النار.

أنواع الجزاء الأخلاقي:

يتمثل الجزاء في: الشعور النفسي، والعقوبات الشرعية، والجزاء الإلهي.

✓ الشعور النفسي :

ويعني به ما يلمسه المسلم من نفسه من الرضا عند الطاعة والألم عند المعصية -وهو ما يسمى برضا الضمير أو وخزه- وقد أخبر الرسول ﷺ عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: (من سرته حسنته وسأته سيئته فذلك المؤمن). وهذا الشعور خاص بالمؤمن، وأما غير المؤمن فلا يبالي بما فعل. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مرَّ على أنفه فقال به هكذا. قال أبو شهاب بيده فوق أنفه).

✓ العقوبات الشرعية:

وهي العقوبات التي أقرها الشرع لأولئك الذين يتعدون حدود الله. والغاية من هذا الجزاء معاقبة المجرم وردعه، وردع غيره ممن تسول له نفسه فعل مثل ذلك. وهذه العقوبات على نوعين:

حدود: وهي جزاءات حددها الشرع على جرائم معينة كحد الزنا، والسرقعة، والقذف، ولا مجال للاجتهاد فيها.

وتعزيرات: وهي عقوبات تاديبية يُعاقب بها من ارتكب جنائية لم يحدد الشرع لها عقوبة.

✓ الجزاء الالهي:

ونعني به الجزاء الذي يكون من الله سبحانه في الدنيا أو الآخرة . ففي حالة الطاعة يكون له من الله سبحانه في الدنيا الرضا والحفظ وتيسير الأمور والنصرة والعزة . قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . وقال جل جلاله: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ﴾ . وفي الآخرة له الجنة والكرامة . قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ . وفي حالة المعصية والاستمرار عليها يكون له في الدنيا ضنك العيش والمصائب من الله . قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ . وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ . وفي الآخرة له نار جهنم وله الإهانة والسخط من الله . قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ .

انتهاء المحاضرة الخامسة

المحاضرة السادسة

نماذج من أخلاق النبي الكريم ﷺ

الرسول ذو الخلق العظيم:

قال تعالى مادحاً نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف أخلاق النبي ﷺ: (كان خلقه القرآن). أي أن أخلاقه عليه الصلاة والسلام كانت تجسيدا عمليا لما جاء به القرآن الكريم من أوامر أو نواهي أو مثلٍ عليها، فهو الذي اختاره الله سبحانه ليكون أسوة ومثلاً أعلى للبشرية، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. وهو الذي وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وهو الذي قال الله فيه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ زكى الله لسانه فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، وزكى صدره، فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وزكى هديه ومنهجه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وفيما يلي عرض نماذج من أخلاق النبي الكريم ﷺ.

❖ عبادة النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ، اتقى الناس وأخشاهم لله، وأكثرهم عبادة وتاهلاً، تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: (أفلا أكون عبداً شكوراً). وكان يدعو ويسبح ويثني على الله تبارك وتعالى ويخشع، يقول عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: (أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء). وكان يكثر من الصيام. تقول عائشة رضي الله عنها: (كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، ولم أره صائماً في شهر قط أكثر منه في شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً). وكان ينظر إلى نفسه وعبادته فيرى نفسه مقصراً في جنب الله فيقول: (إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله مائة مرة).

❖ خلق النبي ﷺ في الدعوة:

كانت دعوته ﷺ لجميع الخلق، وكان يعلم المخطئ والمسيء بأحسن أسلوب، بألطف عبارة وأحسن إشارة، وفيما يلي صور من ذلك:

- روى أبو أمامة - رضي الله عنه - قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال له: (ادنه)، فدنا منه قريباً، قال: (أتحبه لأمك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم) قال: (أفتحبه لابنتك؟) قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لآخواتهم). قال: (أفتحبه لعمتك؟) قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لعماتهم). قال: (أفتحبه لخالتك؟) قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لخالاتهم) قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه) فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.
- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ مه مه فقال رسول الله ﷺ لا ترموه دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله ﷺ قال وأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشبهه عليه). وفي هذا درس بليغ لنا في الدعوة إلى الدين بالرفق واللين، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَاتِّبِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

❖ رحمة النبي ﷺ :

كان الرسول ﷺ رحمة من الله للناس كافة، مسلمهم وكافرهم، صالحهم ومسيئهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، ويقول هو ﷺ عن نفسه: "إنما أنا رحمة مهداة". وفي القيامة هو رحمة للجميع، حيث يشفع لهم ليريحهم من هول الموقف. وعندما طلب منه بعض أصحابه أن يدعو على المشركين أجابهم بقوله: "إني لم أبعث لعانا"، ولم يدع عليهم. وكان يقول: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، وبلغ من رحمته ﷺ أن دعا الله بأن يجعل سببه ولعنه لمن أغضبه رحمة، فقال: "اللهم إنما أنا بشر، فأني المسلمين سببته أو لعنته، فاجعلها له زكاة وأجراً". لقد ملأ الله قلب محمد رحمة بالمؤمنين فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَبَّتُمْ لَّهُمْ ﴾ . وبلغ من شفقتة ورحمته بأمته أن دعا على ولاة الأمور الذين لا يرفقون برعاياهم فقال ﷺ: "اللهم من ولي من أممي شيئاً، فشقق عليهم، فاشقق عليهم، ومن ولي من أممي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به". وقال ﷺ في بيان فضل الرحمة والحث عليها: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"، ومما يدل على أن قلب النبي ﷺ كان مفعماً بالرحمة والشفقة، بكاؤه على ولده إبراهيم في مجتمع يعيب مثل هذا الأمر، ويعتبره ضعفاً في الرجال، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيِّفِ الثَّقِينِ، وَكَانَ ظَنُوراً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: "يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ"، ثُمَّ أَنْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: "إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَجْرُنُ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ".

❖ صدقه ﷺ :

كان الصدق سمة أقواله ﷺ وأفعاله. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ . يعني النبي ﷺ حيث جاء بالقرآن وآمن به، وكذلك آمن أتباعه بما جاء به. وقال ﷺ لأصحابه: (قد علمتم أنني أتقاكم لله وأصدقكم وأبركم) وقد نقب بالصادق الأمين حتى قبل إعلانه دعوته، وإعلامهم بأن الله قد أرسله إليهم، وفي صورتين الآتيتين ما يؤكد هذه الحقيقة:

✓ اعتراف أعدائه بصدقه حتى قبل إعلانه لدعوته: فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: "يا بني فهر، يا بني عدي"، لبطنون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش. فقال: "أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، كنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ الآية.

✓ ما أخبر به عبد الله بن سلام الحبر اليهودي وبسببه أسلم: قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَمَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لَأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَّتْ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعَمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ". هكذا لم يحتج الأمر منه لكي يعلم أن محمداً رسول الله ﷺ سوى أن ينظر إلى وجهه الكريم ليعرف أنه ليس بوجه كذاب.

❖ شجاعة النبي ﷺ :

لعل أهم وأبرز ما تتجسد فيه شجاعة النبي ﷺ مواجهته لقومه وللمشركين من حوله بمبادئ الدين الحنيف وعقائده، والتي تتعارض مع ما ألفوه وتوارثوه عن آبائهم وأسلافهم. وفيما يلي نستعرض بعضاً من صور شجاعته ﷺ :

- سبقه لكشف أخبار العدو: فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَزَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَأَنْطَلَقَ نَاسٌ قَبْلَ الصَّوْتِ فَتَلَقَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعًا وَقَدْ سَبَّهَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِيٍّ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا قَالَ: وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لِبَحْرٌ) أي أن الفرس كان سريعاً فسبقتكم إلى الصوت وليس هناك ما يخيف فارجعوا.
- وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ النَّبَأُ، وَلَقِيَ الْقَوْمَ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ.
- موقفه ﷺ يوم حنين، فعن سيدنا العباس رضي الله عنه قال شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مديريين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا أخذت بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تسرع فقال رسول الله ﷺ أي عباس ناد أصحاب السمرة. قال عباس - وكان رجلاً صيبتاً فقلت: أين المهاجرون الأولون أين أصحاب سورة البقرة والنبي ﷺ يقول قداما: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب. قال فو الله لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا يا لبيك يا لبيك قال فافتتلوا والكفار حتى انهزم الكفار. قال وكأني أنظر إلى النبي ﷺ يركض خلفهم على بغلته.

❖ عفو النبي ﷺ :

كان النبي ﷺ متخلفاً بالعفو في أكمل صورته استجابة لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. ولعل من أروع تلك الصور:

- عوفه ﷺ عن أهل مكة المكرمة بعد الفتح، مع شدة إيذائهم له ولأصحابه، واضطهادهم، وملاحقتهم إلى الحبيشة، والاستيلاء على ديارهم وأموالهم التي تركوها خلفهم في مكة إبان هجرتهم. ولكنه ﷺ حين دخلها فاتحاً، وأمكنه الله من رقابهم، وقف فيهم خطيباً وقال: (يا معشر قريش؛ ما تقولون؟) قالوا: نقول: ابن أخ، وابن عم، رحيم كريم. ثم أعاد عليهم القول. فقالوا مثل ذلك. قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَفْعَرُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ فخرجوا فبايعوه على الإسلام.
- عوفه ﷺ عن مَنْ هَمَّ بِقَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ أَمَكَّنَهُ اللَّهُ مِنْهُ: فقد روى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ عَزَاَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ. فَلَمَّا قَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكْتَهُمُ الْقَائِلَةَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعُضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَنْظِلُونَ بِالشَّجَرِ. فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلِمَ تَحْتَ سَمْرَةٍ، وَعَلَقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنَمْنَا نَوْمَةً. فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ. فَقَالَ: (إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِي صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ. فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٍ) ثُمَّ لَمْ يَعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسَ. “ وغيرها من الصور كثيرة جداً تزخر بها كتب السنة والسيرة النبوية لا يتسع المقام لتذكر المزيد منها، وغرضنا هو التمثيل والتدليل فحسب.

انتهاء المحاضرة السادسة

المحاضرة السابعة

جوانب أخرى من أخلاق الرسول ﷺ

❖ تواضع النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ لا يتميز عن أصحابه بهيئة أو لباس أو مكان جلوس أو غير ذلك مما يتميز به وجهاء الدنيا. يُجيب دعوة الحر والعبد، والغني والفقير، ويجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويحلب الشاة، ويعود المرضى، ويقبل عذر المعتذر. يدخل عليه الرجل ممن لا يعرفه فيسأل أياكم محمد؟ والنبي ﷺ بين ظهرائهم، فلا يعرفه حتى يجيبونه: هذا هو .
ونذكر فيما يلي صوراً من تواضعه ﷺ :

فمن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل، فكلمه فجعل تُرعدُ فرائصه، قال جرير: فقال له النبي ﷺ : (هون عليك فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تاكل القديد في هذه البطحاء). ثم تلا جرير: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ولقد كان يوم خيبر ويوم قريظة على حمار خطامه جبل من ليف وتحته أكاف من ليف . وكان ﷺ ينهى عن مدحه وإلقاء الألقاب عليه، ويقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله). وكان يحذر من الكبر، فمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". قال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال النبي ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس". ومعنى بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. ومعنى غمط الناس: احتقارهم. فبين النبي ﷺ المعنى الصحيح للكبر، وأنه التكبر على الحق، واحتقار الناس. وقد بلغ من تواضع النبي ﷺ، ورغبته في جبر خواطر الناس أن قال: "لو دُعيت إلى كراعٍ لأجبت، ولو أُهدي إليّ ذراعٍ لقبّلت". ومن تواضعه ﷺ أنه كان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب. والإهالة السنخة: تعني الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث . وعن أنس أن خياطاً دعا النبي ﷺ لطعام صنعه قال أنس فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام فقرب إلى رسول الله ﷺ خبزاً من شعير ومرقاً فيه دباء وقديدٌ قال أنس فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حوالي الصفحة.

❖ زهد النبي ﷺ :

كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأرغيبهم في الآخرة، خيره الله تعالى بين أن يكون ملكاً نبياً أو يكون عبداً نبياً، فاختر أن يكون عبداً نبياً. كان ينام على الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة. قال أنس بن مالك ﷺ: (دخل عمر وناس من الصحابة فانحرف النبي ﷺ فرأى عمر أثر الشريط في جنبه فبكى فقال النبي ﷺ : ما يبكيك يا عمر قال: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا وأنت على الحال الذي أرى فقال يا عمر: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة قال : بلى. قال: هو كذلك). وكان من زهده ﷺ وقلة ما بيده أن النار لا توقد في بيته في الشهر والشهرين، فمن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول لعروة بن الزبير: والله يا ابن أختي كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهله في شهرين ما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قلت: يا خالة فما كان عيشكم؟ قالت: الأسودان - التمر والماء (-).

❖ صبر النبي ﷺ :

الصبر خلق محمود، ومطلوباً من كل مسلم ولكن بدرجات متفاوتة. وكلما كان الطموح في التقرب إلى الله أكبر، كانت الحاجة إلى الصبر أشد. ومن ثم كانت حاجة النبي ﷺ إلى التسليح بهذا الخلق أعظم. وقد كان حظ النبي منه كبيراً، فلقد أؤذي كثيراً من المشركين في مكة، ومن المنافقين في المدينة المنورة، ومن صور الإيذاء تلك : ما كان يوم العقبة، فقد لقي من قومه قدراً عظيماً من الأذى فتوجه إلى ربه يبتئ إليه شكواه. وإذا جبريل ومعه ملك الجبال يستأذنه ليُطبق عليهم الأخشبين -جبل مكة: أبو قبيس والأحمر- ولكنه ﷺ أبى وصبر، وقال: (بَلْ أَرَجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً). ومن ذلك ما رواه طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز فمرّ وعليه جبة له حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: " يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله - تفلحوا" ، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس! لا تصيعوه فإنه كذاب؛ قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى - وهو أبو لهب. وعن الحارث بن الحارث الغامدي قال: حججت مع أبي فلما كنا بمنى إذا جماعة على رجل! فقلت: يا أبة! ما هذه الجماعة؟ فقال: هذا الصابي الذي ترك دين قومه، ثم ذهب أبي حتى وقف عليهم على ناقته، فذهبت أنا حتى وقفت عليهم على ناقتي، فإذا به يحدثهم وهم يردون عليه، فلم يزل موقف أبي حتى تفرقوا عن ملل وارتفاع من النهار، وأقبلت جارية في يدها قدح فيه ماء ونحرها مكشوف، فقالوا: هذه بنته زينب، فناولته وهي تبكي، فقال: "خمري عليك نحر ك يا بنية! ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذلاً".

❖ مزاح النبي ﷺ :

كان من هديه ﷺ أن يمزح مع أصحابه لمؤانستهم، ولإدخال السرور على قلوبهم، وليلعلمهم أن في ديننا فسحة. فالنفوس تملّ وتَسأم، وتحتاج إلى الترويح والترفيه؛ إلا أنه ﷺ (لم يكن يقول في مزاحه إلا حقاً). ولم يكن يكثر منه؛ لأنه كثرته تُقسي القلب، وتُشغل عن ذكر الله، وعن التفكير في مهمات الدين، وقد تنتهي إلى منازعات وأحقاد، وتُسقط المهابة والوقار. وفيما يلي صور من مزاحه ﷺ: أن امرأة عجوزاً سألته ﷺ فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال لها النبي ﷺ: (يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز، فقلت تبكي. فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً فَفَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرْباً أَثَرَاباً﴾. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله احملنا على بعير. فقال: أحملكُم على وُلْدِ الناقة. قال: وما تصنع بولدِ الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تلدُ الإبل إلا النوق؟). وعن أنس بن مالك أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام كان يهدي إلى النبي ﷺ الهدية فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج فقال رسول الله ﷺ: (إن زاهرا باديانا ونحن حاضره). قال: فاتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت إليه فلما عرف أنه النبي ﷺ جعل يلزق ظهره بصدوره. فقال رسول الله ﷺ: (من يشتري هذا العبد؟) فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسداً. قال: (لكنك عند الله نست بكاسد). أو قال ﷺ: (بل أنت عند الله غال).

❖ حياة النبي ﷺ :

يقول النبي ﷺ: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ). أي: أن لكل دين طبعاً، وطبع هذا الدين الذي به قوامه وجماله هو الحياء. وهو خلق يخص الإنسان، ومن أفضل خصال الأخلاق، ولولاه لم يستر المرء له عورة، ولم يتمتع من فاحشة، بل إن كثيراً من الناس لولا الحياء لم يؤد واجباً، ولم يراع حقاً لمخلوق. وفيما يخص النبي ﷺ، فإنه كان كما يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: "أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرف في وجهه". والخدر: الستر أو الخلوة. وإنما قال أبو سعيد ذلك: لأن حياء العذراء في الخلوة يشتد أكثر مما لو كانت في غير خلوة، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها. ويضيف أبو سعيد أنه ﷺ لم يكن يواجه أحداً ويصارحه بما يكرهه منه لشدة حيائه، بل كان يتغير وجهه، فيفهم أصحابه كراهيته لذلك الأمر.

❖ عدل النبي ﷺ :

العدل هو المساواة في المكافأة في خير أو شر. والإحسان مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بتركه أو بأقل منه. ومن يقرأ في سيرة الرسول ﷺ يجده المثل الكامل في الأمرين. ففيما يتعلق بإنصاف غيره من نفسه، فإنه كان يأخذ بالعدل. وفيما يتعلق بالانتصاف لنفسه من غيره، فإنه كان يأخذ بالإحسان. روى أبو سعيد الخدري ﷺ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً، أتاه ذو الخويصرة - وهو رجل من بني تميم - فقال: يا رسول الله عدل. فقال: (ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل. لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل). فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أئذني لى فيه أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ: (دعه فإن له أصحاباً يحقر أحداكم صلواته مع صلواتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية). ولما سرقت المرأة المخزومية أمة فريشاً شاتها، فقالوا من يكلم رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ! فكلم رسول الله ﷺ، فقال: (أتشفع في حد من حدود الله؟) ثم قام فخطب قال: (يا أيها الناس؛ إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) وكان أسيد بن حضير ﷺ يحدث قومه ذات مرة ويضحكهم بمزاحه ومليح كلامه، والنبي ﷺ معهم في المجلس، فطعنه النبي في خاصرته بعود. فقال: أصبرني (أي؛ أقدني من نفسك). فقال: (اصطبر). قال: إن عليك قميصاً وليس علي قميص. فرفع النبي ﷺ عن قميصه. فاحتضنه وجعل يقبل كشحه (أي؛ بطنه فوق مشد الإزار). قال: إنما أردت هذا يا رسول الله" هذه بعض صور عدله، وأما صور إحسانه فقد مر معنا بعض الأمثلة كعاملته لقريش بعد فتح مكة، ومن أدوه في جسده الشريف، أو بكلامهم فيه، وعفوه عنهم.

❖ أخلاق النبي ﷺ مع أهله :

حث الرسول ﷺ على حسن التعامل مع الأهل، فقال: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي). وكما وصف الرسول ﷺ نفسه، فقد كان خير الناس لأهله في طيب كلامه، معهن، وحسن عشرته لهن، وإكرامه لمشاعرهن. ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر وهي جارية فقال لأصحابه: (تقدموا). فتقدموا. ثم قال: (تعال أسابقتك). فسأبتته فسأبتته على رجلي، فلما كان بعد، خرجت أيضاً معه في سفر، فقال لأصحابه: (تقدموا). ثم قال: (تعال أسابقتك). ونسيت الذي كان، وقد حملت اللحم، فقلت: وكيف أسابقتك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ فقال: (لتفعلن). فسأبتته فسأبتني فقال: (هذه بتلك السبقة). وتروي السيدة عائشة أيضاً فتقول: "والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله ﷺ، يسترنني بردائه لكي أنظر إلى نعليهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف فأقعدوا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو). وحين سنت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته، أجابت: "كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة". وفي أحاديث أخرى كانت إجابتها أكثر تفصيلاً، فقد ذكرت صور خدمته ﷺ في بيته، فقالت: "كان يفعل ما يفعل أحدكم في مهنة أهله، يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويرفح دثوة". وهذا كله من تواضعه ﷺ، ورغبته في أن يخدم نفسه، ولا يكون عبداً على أهله. ومن دلائل احترامه الكبير، وجبه الشديد لزوجته خديجة رضي الله عنها، أنه كان يذبح الشاة ثم يهديها إلى صديقاتها، وذلك بعد مماثها.

❖ أخلاق النبي ﷺ مع الأطفال :

كان النبي ﷺ يمر بالصبيان فيسلم عليهم. ويسمع جوارى يغبين في بيته فلا يمتنعن. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "دخل علي أبو بكر وعندي جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاوتت به الأنصار يوم بعثت. قالت: وليستنا بمغنيتين. فقال أبو بكر: أيمزور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد. فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا بكر إن لكل قوم عبداً وهذا عيدنا). وكان ﷺ من شدة شفقتة على الأطفال ورحمته بهم، أنه كان وهو في الصلاة - التي هي أعظم عبادة - ومع أصحابه يؤمهم جماعة، يسمع بكاء الصبي فيخفف من صلواته رحمة به ويأمله لما يعلمه من وجد الأم وعطفها على ولدها. يقول ﷺ: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوؤ في صلاتي كراهية أن أشق على أمه). وكان ﷺ "يؤم الناس وأمامة بنت أبي العاص - وهي ابنة زينب بنت النبي ﷺ على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها". ودخل الحسن والحسين رضي الله عنهما المسجد ذات مرة، والنبي ﷺ يخطب في الناس، فنظر إليهما فإذا هما يمشيان ويعثران، فخشي أن

يصببهما الأذى من تعثرهما، فنزل إليهما، ووضعها بين يديه على المنبر وقال: (صَدَقَ اللهُ ﴿أَنَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَّةٌ﴾ نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتَرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا).

❖ أخلاق النبي ﷺ مع الخدم:

كان النبي ﷺ رحيماً بالعبيد والخدم غاية الرحمة، وكان يوصي المسلمين بهم خيراً. والمواقف والمشاهد التي تدل لذلك وتؤكدته كثيرة جداً منها: كان زيد بن حارثة عبداً لخديجة، فاهدته للنبي ﷺ بعد زواجهما، وقدم والده إلى النبي ﷺ يطلب إعتاقه ويبيد استعداده لشرائه بالمال. فأخبره الرسول بأنه سيناديه ويغيره، فقبل والده بذلك، وسر به؛ لأنه لم يكن يساوره أية شكوك بأنه سيختاره والده وأهله، فناداه الرسول وخبره بين البقاء عنده أو اللحاق بوالده. فكان جوابه: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً. قال والده: ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال: نعم؛ قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً. فانصرف والده بعد أن أسلم، واطمأن على وضع ابنه. وتبيناه الرسول ﷺ، فأصبح ينادي بزید بن محمد حتى نزل في القرآن: (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) كان النبي يوصي بحسن معاملة العبيد ويقول: (إِنْ إِخْوَانَكُمْ حَوْلَكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ). وكان يأمر بمناداتهم بما يشعرون بكرامتهم، فيقول: (لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمْتِي كُلُّكُمْ عِبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نَسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَّتِي وَفَتَاتِي). ويقول أنس رضي الله عنه: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أْفَارٍ وَلَا لَمْ صَنَعْتَ، وَلَا أَلَا صَنَعْتَ". وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِماً، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ".

❖ هديه ﷺ في الرفق بالحيوان:

خص النبي ﷺ الحيوانات بأحكام شرعية تؤصل للرفق بها. يقول النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَاحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَاحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُجِدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيَبْرِحْ ذَبِيحَتَهُ). وكان بعض الفتيان يلجؤون على سبيل اللعب إلى نصب بهائم للرمي إليهم، فرأهم بعض الصحابة، فانكروا عليهم لما فيه من إيذاء وتعذيب لها يتنافى مع رحمة الإسلام. من ذلك: أن أنس بن مالك رضي الله عنه دخل دار الحكم بن أيوب فوجد قوماً قد نصبوا دجاجة يرمونها. فقال: "نهى رسول الله ﷺ أَنْ تُصْبِرَ الْبَهَائِمُ". ومر عبد الله بن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا. فقال ابن عمر: "من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيهِ الرُّوحُ غرضاً". وغض الله لرجل في كلب سقاه. ودخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً. وختاماً نقول: إن هذه الصور لم تكن سوى غيض من فيض عن أخلاق الحبيب محمد صلوات ربي وسلامه عليه، وإن المجلدات العظام لن تحيط بوصفها. إن البشر مهما قالوا، ومهما كتبوا عن أخلاقه ﷺ فلن يبلغوا ثناء الله عليه وعلى أخلاقه. إن إلهنا العظيم عندما يصف خلق الحبيب بأنه عظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾، فماذا عسى أن يبلغ وصف البشر لأخلاقه ﷺ. غير أن الذي يجب أن لا نغفل عنه هو السعي في إحياء هذه الأخلاق النبوية في حياتنا، فنتجلى بهار، وندعو إليهم خصوصاً في هذا الوقت الذي كادت الأخلاق الحميدة والمثل العليا أن تختفي من حياة الناس، وأصبحت المادة والمصلحة هي الغاية القصوى من الوجود، إن البشرية اليوم ضائعة، وهي بأمس الحاجة إلى إحياء هذه القيم السامية في واقع حياتها. إننا حين نعرف الآخرين بمحمد ﷺ، من هو؟ ولماذا نتخذها أسوة في حياتنا؟ نكون قد قدمنا لهم وللإسلام أعظم خدمة يمكن تقديمها اليوم.

انتهاء المحاضرة السابعة

المحاضرة الثامنة

أخلاق المهنة ومدى الحاجة إلى دراستها

تعريف المهنة:

المهنة لغة: بكسر الميم وفتحها، والفتح أشهر. وتطلق على الخدمة والعمل، كما تطلق على الحدق والمهارة فيها. وبمعنى الخدمة ورد قول النبي ﷺ: (ما على أحدكم إن وجد أو ما على أحدكم إن وجدتم أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته). أي سوى ثوبي الخدمة والعمل، إذ إن ثوب الخدمة والعمل يكون مبتذلاً، ولا تتم المحافظة على نظافته ولا يصاب. وبهذا المعنى أيضاً قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سئلت عن ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ فقالت: "كان يكون في مهنة أهله تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة". وفي رواية: "كان يفعل ما يفعل أحدكم في مهنة أهله، يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويرقع دونه".

وفي الاصطلاح المعاصر:

تطلق المهنة على: الحرفة التي تشتمل على مجموعة من المعارف العقلية ومجموعة من الممارسات والخبرات التدريجية، يؤديها الفرد من خلال ممارسته للعمل. أو هي: عمل يحتاج إلى معارف عقلية وخبرة ميدانية. كالتطير، والهندسة، والتدريس، والمحاسبة. مرادفات لفظ المهنة: هناك ألفاظ قريبة في معناها من المهنة وربما التبتت بها، من أبرزها:

✓ الحرفة:

وهي لغة: الصنعة أو وسيلة الكسب التي يرتزق منها المرء بصفة مستمرة، من زراعة أو صناعة أو تجارة، وتحتاج إلى تدريب قصير. والاحتراف: هو الاكتساب. وليس للاعتراف معنى اصطلاحى خارج عن المعنى اللغوي. وغالباً ما تستعمل في الأعمال اليدوية سواء كانت بآلة أو بغير آلة. من ذلك ما ورد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما استخلف، وكان تاجراً، فأراد أن يخرج لتجارته، فقال له عمر: إلى أين؟ قال: أحترف لأهلي. قال: ومن لمصالح المسلمين وإدارة شؤونهم. أرجع ويصرف لك من بيت المال حاجتك، فرجع ففعلوا له أفين. فقال: زيدوني فإن لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة. وقال أبو بكر رضي الله عنه "لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤنة أهلي، وشغلت بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال، ويحترف -أي أبو بكر- للمسلمين فيه". فعمل أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه كان في التجارة، وقد سماه حرفة.

✓ العمل:

يطلق على المهنة وعلى الفعل. والفارق بينه وبين كل من المهنة والحرفة: أ- أن العمل يكون من الإنسان أو الحيوان، والحرفة لا تكون إلا من الإنسان. فالثور الذي يحرق الأرض يعمل، والطائر الذي يبني لنفسه عشاً يعمل، ولكنه ليس محترفاً أو ذي مهنة. ب- العمل يكون ذهنياً، ويكون بدنياً، وأما الحرفة فغالبا أنها تُطلق على الأعمال اليدوية. ج- العمل يستعمل للمرة الواحدة ولأكثر، ولا يحتاج إلى التدريب، بخلاف المهنة أو الحرفة فلا بد فيها من بعض التدريب والاستمرارية.

✓ الصناعة:

لغة: ترتيب العمل وإحكامه على النحو الذي تعلمه، وبما يوصل إلى المقصود منه. فيقال للتاجر صانع، ولا يقال للتاجر صانع؛ لأن النجار قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب، وكذا سبق علمه بالأسباب التي توصله إلى المقصود منه، وأما التاجر فلا يعلم إذا تجر هل سيصل إلى ما يريد من الربح أم لا؟ الفرق بين الصناعة والعمل: يمكن تلخيص أوجه الفرق بين الاثنين فيما يأتي: أ- العمل يُطلق على ما يصدر من الإنسان أو الحيوان، بينما لا تُطلق الصناعة إلا على ما صدر من الإنسان. ب- العمل لا يتطلب العلم بما يعمل له، بخلاف الصناعة فإنها تتطلب العلم والمهارة، بل إن الصناعة لا تُطلق إلا على ما كان بإجادة، وفيه معنى الحرفة. ج- الصناعة أخص والعمل أعم. وكل صناعة عمل، وليس كل عمل صناعة.

✓ **الوظيفة:** لغةً: ما يقدر من عمل أو طعام أو رزق في زمن معين، وتأتي أيضاً بمعنى الخدمة المعينة. وفي الاصطلاح المعاصر: تطلق على وحدة من وحدات العمل، تتكون من عدة أنشطة مجتمعة مع بعضها في المضمون والشكل، ويمكن أن يقوم بها موظف واحد أو أكثر. كالمحاسبة في شركة مثلاً فإنها وظيفة، تحتوي على مجموعة من الأنشطة من جمع للبيانات والفواتير، وتصنيفها وإدخالها في الحاسوب، وجمعها، وإجراء المقابلة والمقاصة بين الوارد والصادر منها ثم إخراج النتيجة النهائية لليوم، ثم للشهر، ثم للسنة، وهكذا... وقد يكون للشركة محاسب واحد أو مجموعة من المحاسبين.

خصائص المهنة:

- تقديم خدمات أساسية ومفيدة للمجتمع.
- حاجتها إلى الإعداد العلمي من خلال برامج ذات أهداف محددة، ومن جهات علمية معترف بها.
- لكل مهنة معارف ومهارات خاصة بها.
- لكل مهنة قوانين وآداب تنظمها، وتحكم العمل بها.
- غالباً ما يوجد في وقتنا الحالي تجمع للعاملين بالمهنة يتحدث باسمها ويدافع عنها كالنقابات.
- لكل مهنة معالمها الواضحة التي تميزها عن غيرها من المهن.

الحكم الشرعي للمهنة:

إن من يقرأ في كتاب الله تعالى، أو في أحاديث النبي ﷺ، يجد أن الإسلام يحث على العمل، ويرفع من شأنه. كما أن من يقرأ سيرة النبي ﷺ العطرة، أو غيره من الأنبياء عليهم السلام، أو يقرأ في سير الخلفاء الراشدين، أو الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، أو في سير سلف الأمة وأئمتها، يجد أنهم جميعاً قد مارسوا مختلف المهن من تجارة ورعي وزراعة وخباطة وحدادة وغيرها. من ذلك مثلاً: قول الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ واللبوس: الدروع. وقول الرسول ﷺ: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده). وقوله: (ما من مسلم يفرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة). ويقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "كان آدم عليه السلام حراثاً (زارعاً)، وكان إدريس خياطاً، وكان نوح نجاراً، وكان هود تاجراً، وكان إبراهيم راعياً (و ورد بزأراً أي تاجراً يبيع الملابس)، وكان داود زراداً (أي حداداً)، وكان سليمان خواصراً، وكان موسى (راعياً) أجيراً، وكان عيسى سياحراً، وعمل محمد ﷺ في التجارة والرعي كما أخبر عن نفسه ﷺ ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا؛ سقط من عيني". وفي هذا القدر كفاية، إذ ليس الغرض الحصر والاستقصاء.

فهذه النصوص -وغيرها مما في معناها كثير- تدل على مدى حث الشريعة على العمل، وعلى مدى إعلائه من شأنه.

تعريف أخلاق المهنة:

أخلاق المهنة هي: "مجموعة القيم والأعراف والتقاليد التي يتفق ويتعارف عليها أفراد مهنة حول ما هو خير وعدل في نظرهم، وما يعتبرونه أساساً لتعاملهم وتنظيم أمورهم وسلوكهم في إطار المهنة" أو بعبارة أخرى: هي تلك التوجيهات النابعة من القيم والمبادئ التي يؤمن بها أفراد المجتمع، والتي ينبغي للشخص أن يتحلى بها أثناء ممارسته للمهنة.

الفرق بين أخلاق المهنة وأنظمتها:

- أنظمة المهنة هي: القوانين والتشريعات التي تنظم عمل الممارسين للمهنة. أي أن:
- أ- أخلاق المهنة تهتم بما ينبغي فعله، وأما أنظمة المهنة فتهتم بما يجب فعله.
 - ب- من يخالف أخلاق المهنة يستحق اللوم والعتاب، وأما من يخالف أنظمتها فإنه يستحق العقوبة الزاجرة.

مصادر أخلاق المهنة:

نصوص الشريعة كتاباً وسنةً هي مصدر التكليف الشرعية عامةً بما فيها الجانب الأخلاقي، وأخلاق المهنة بصفتها تمثل جانباً من جوانب السلوك الأخلاقي، فإن مصدرها أيضاً هو الشرع، وقد جاءت الشريعة لتأخذ بيد الإنسان إلى الحياة الهانئة الطيبة الآمنة السعيدة، وليعيش في ظلال الإيمان الوارفة، ومن ثم كانت تحث على كل فضيلة، وعلى كل ما هو من مكارم الأخلاق، وعلى إتقان العمل، وعلى بذل النصيحة للآخرين والسعي فيما ينفعهم، وعلى مراقبة الله عز وجل في كل شؤون الحياة. ونصوص الشرع في ذلك كثيرة، كقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، ويقول الرسول ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق). وكون الشرع مصدر أخلاق المهنة لا يعني المنع من الاستفادة مما هو متوافر لدى الآخرين من غير المسلمين من أنظمة وتشريعات وإجراءات وأساليب نافعة ومفيدة في هذا الباب، ما لم تكن مصادمةً للشرع.

مدى الحاجة إلى دراسة أخلاق المهنة:

لكل مهنة أخلاق وآداب عامة تحددها القوانين واللوائح الخاصة بها، ومن خلال مراعاتها تتم المحافظة على المهنة ومكانتها. وكثيراً ما تجمع هذه الآداب والأخلاق في عصرنا هذا في وثيقة واحدة، يطلق عليها ميثاق الشرف المهني. ومن المعلوم أن مجموع المهن في المجتمع (كالتدريس والقضاء والطب والهندسة والمحاسبة وغيرها) هي الأداة المنفذة لأهداف وتطلعات أبناء المجتمع، فإذا فقد العاملون فيها آداب وأخلاق مهنتهم، كان ذلك نذير شؤم عليهم، وعلى مجتمعهم، وكان دليلاً على قرب نهايتهم، فكما يقول الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ونظراً لاتساع سلطان العلم في عصرنا هذا وما رافقه من تقنيات مذهلة في معظم مجالات الحياة، ولأن مجالات العمل قد تضاعفت أضعافاً كثيرة عن العصور السابقة، فقد أصبحت الحاجة إلى أخلاق المهنة أكثر إلحاحاً، وأشد ضرورةً تلافياً لما يمكن أن يوجه إليه المهنة من الاستغلال السيئ من قبل بعض المنحرفين، ومرضى النفوس، فتصبح وسيلة للإفساد والتدمير والعبث بمصير البشرية، ولا أدل على ذلك مما نجده في أيامنا هذه من العبث بالجينات الوراثية للمواد الغذائية، ومثل ذلك الاستنساخ والعبث بخلقة بعض الحيوانات وجعلها قطع غيار، والسعي بعد ذلك للعبث بخلقة الإنسان، وكذلك التنافس المحموم بين كثير من دول العالم في تصنيع القنابل النووية، إلى الصواريخ العابرة للقارات، إلى غزو الفضاء من خلال أقمار التجسس... وهكذا. وهذه الأمور التي هي على درجة كبيرة من الخطورة ليس على البشرية فحسب، بل على الكون برمتيه بكائناته الحية وجماداته، دفعت كثيراً من رجال العلم والفكر في العالم للدعوة إلى وضع مواثيق شرف أخلاقي يكون من شأنها حماية سمعة المهنة، والمحافظة عليها من الانحراف والاستغلال. وقد تمت الاستجابة لهذه الدعوات ووضعت كثيراً من المواثيق في البلدان المختلفة، انطلاقاً من قيم البلد ومبادئه، ومن هنا كانت الحاجة إلى دراستها.

صفات الميثاق الأخلاقي:

لكي يحقق الميثاق الأخلاقي أهدافه يجب أن يتصف بما يلي:

- أن تكون مواده منسجمة مع قيم المجتمع ومبادئه.
- أن تكون مختصرة.
- أن تكون سهلة وواضحة.
- أن تكون معقولة ومقبولة من الناحية العملية.
- أن تكون شاملة.
- أن تكون إيجابية.

انتهاء المجازرة الثامنة

المحاضرة التاسعة

الأخلاق الجامعة للمهنة وخلق الطهارة المهنية

لَمَعِيد: للمهنة عناصر أربعة هي: العامل ورب العمل والمستفيد والمجتمع. ويُقصد بأخلاق المهنة هنا تلك الصفات التي تنشأ الكمال في هذه العناصر الأربعة. ولما كانت ممارسة المهنة تتم في إطار التزام قانوني أو تعاقدية، فإنه غالباً ما يشتمل هذا القانون أو العقد على بعض الخصال الأخلاقية باعتبارها التزاماً واجباً. ونحن في دراستنا هذه سنستبعد تلك الخصال الواجبة عن محل البحث. كما سنستبعد الخصال الأخلاقية العامة المطلوبة دائماً وفي كل مجالات الحياة كبر الوالدين والإحسان للجار وبذل النصيحة للآخرين عن محل البحث. وسنقتصر على ما له صلة بكمال المهنة مما لم يشتمل عليه قانون المهنة أو التعاقد. وسنجمع هذه الأخلاق (أخلاق المهنة) في خمس مجموعات هي: الطهارة المهنية، الاستقامة المهنية، التعاون المهني، الأمانة المهنية، المحبة المهنية.

الطهارة المهنية:

الطهارة لغة: مصدرٌ من طَهَرَ يَطْهَرُ وتعني النضافة والنقاء والتنزّه عن الأقدار، حسية كانت تلك الأقدار أو معنوية. والظاهر هو: البرئ من العيوب، وهو النزاهة، والشريف.

وفي الشرع: تطلق على غسل أعضاء مخصوصة بصفة مخصوصة (أي رفع الحدث الأصغر أو الأكبر)، أو إزالة نجاسة.

أقسام الطهارة: الطهارة على ضربين: حسية، ومعنوية.

الطهارة الحسية: وتتحقق برفع الحدث أو إزالة النجس أو ما في معناهما وعلى صورتها.

الطهارة المعنوية: وتتحقق بترك الذنوب، وتنقية النفس من العيوب.

تحقق الطهارة المهنية: تدخل الطهارة المهنية تحت القسم الثاني، أي الطهارة المعنوية، وتعني تطهير المهنة وتنزيهاها عن النقائص والعيوب، ويتحقق ذلك من خلال المحافظة على أمرين:

أ- السمعة الطيبة ممن يقدم المهنة: وذلك بأن يترفع عن النقائص والعيوب ويتصف بسمعة طيبة.

ب- جودة الأداء: وذلك من خلال تنزيه المهنة نفسها عن العيوب والنقائص.

شروط الطهارة المهنية:

يشترط في المهنة لتتصف بالطهارة أن تتوافر فيها ما يأتي:

1- أن يمتلك كل من العامل ورب العمل صفحة بيضاء في سجل المهنة، ويتمتع بسيرة طيبة (أي: شهادة حسن سلوك) وأن يحرص على استمرارها كذلك. فلو عرف عن قاض أو موظف قبوله للهديّة تلوّثت صفحته المهنية، ولم تعد بيضاء، ولو عرف عن طبيب تتبعه لعورات النساء تلوّثت صفحته، ولو عرف عن تاجر غشه تلوّثت صفحته ... وهكذا.

2- أن يلتزم كل من طرفي المهنة (العامل ورب العمل) بالقواعد المنظمة لممارستها. فرب العمل يجب أن يحصل على ترخيص مزاولة المهنة قبل ممارستها، وأن لا يتعاقد مع من لم يستوف شروط التعيين (كالسن القانونية، والمؤهل الدراسي وغيرها)، وإلا تلوّثت صفحته المهنية، كما يجب أن يكون العامل مستوفياً شروط التعيين (كأن يكون حاصلًا على المؤهل الدراسي في المهن التي تشترطه كالمعلم والصيدلة والهندسة، وأن يكون ضمن حدود السن القانونية المحدد).

3- أن يمتلك العامل الخبرة المطلوبة في الأعمال التي يستلزم ممارستها خبرة. كممارسة مهنة المحاماة فلا يمارسها إلا من أمضى فترة محددة بعد تخرجه لدى محامٍ آخر متمرس، وكالعمليات الجراحية، فلا يقوم بها إلا من مارسها فترة محددة بعد تخرجه تحت إشراف طبيب آخر جراح متمرس، وكالمنافسات أو المزايدات الكبيرة فلا يقوم بها عامل مبتدئ، وإنتاج المصنوعات التي تحتاج إلى تقنية عالية فلا يشرف عليها إلا خبير.

4- أن يكون صاحب المهنة (سواء أكان عاملاً أم رب عمل) مبتقناً لمهنته، متمكناً منها، وأن يتصف المنتج بالجودة، وإلا كان غاشاً في عمله. فإذا افتقد أي شرط من هذه الشروط كان ذلك مساً بخلق الطهارة المهنية، ومخالفاً لما يتطلبه.

التوجيه الفقهي لخلق الطهارة المهنية:

لا تقوم مهنة معتبرة بغير طهارة، ومن ثمّ كان الحد الأدنى من هذه الطهارة ضرورة لازمة، ومطلباً لا غنى عنه. وهذه الضرورة استلزمت مع مرور الزمن وتغيير الظروف والأحوال صدور قوانين تنظم وضع كل مهنة، كما أن هذه الضرورة دفعت الجهات المختلفة إلى وضع صيغ للعقود تتضمن الشروط والضوابط التي يجب على المتعاقدين الالتزام بها إما بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشرة كالإحالة إلى عرف أو جهة ونحوها. وبذلك تحوت تلك الصفات الأخلاقية من كونها أخلاقاً كريمة مرغوب فيها إلى التزام واجب، يترتب على مخالفتها المساءلة القضائية. إلا أن الإحاطة بخصال الطهارة المهنية من خلال تلك القوانين والعقود غير ممكن لكثرة وتشعب تلك الخصال، ولاتساع ميدانها، الذي هو ميدان الفضيلة والسمو، ومن ثمّ كان الزائد عن حد الضرورة أو الواجب مما لم ينص عليه العقد أو القانون هو المراد بخصال الطهارة المهنية، وهو الذي يدخل في أخلاق وآداب المهنة، ويترتب على الإخلال بها المساءلة الأخلاقية دون القضائية.

وهنا يجب علينا أن ننبه لأمريين :

أولهما- لكل مهنة ما يناسبها من أخلاق الطهارة المهنية، فما هو مطلوب لمهنة القضاء قد يختلف عن ما هو مطلوب لمهنة الطب أو الصيدلة أو التجارة وهكذا. وما يلزم القاضي للحفاظ على سمعته الطيبة، يختلف عن الذي يلزم الطبيب، أو التاجر، ويقال الشيء نفسه عن آداب ممارسة المهنة. ثانيهما- المقصود هنا ما يؤثر على سمعة المهنة وطهارتها على وجه الخصوص، وليس الأوجه الأخرى للطهارة الخلقية التي لا شأن لها بالمهنة كسمعته بين أهله أو لدى جيرانه مثلاً.

أدلة الطهارة المهنية:

يدل لخلق الطهارة المهنية آيات عديدة من كتاب الله وأحاديث كثيرة من سنة رسول الله ﷺ، منها:

- 1- قول الله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. والإتقان والجودة معنى من معاني الطهارة المهنية.
- 2- ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْجَبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، فالكف عن الفساد والإفساد والترفع عنهما من خلق الطهارة المهنية؛ لأنها من باب التنزه عن النقائص والعيوب.
- 3- ومنها: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ فالتواضع ولين الجانب، والإعراض عن السفه، كل ذلك من خلق الطهارة المهنية، وتحقق لصاحبها السمعة الطيبة.
- 4- قول النبي ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه). وفيه دلالة على طلب الإتقان في العمل، وجودة الأداء، وهو من خلق الطهارة المهنية.
- 5- وقوله ﷺ: (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك وناقح الكير...). وفيه دلالة على أهمية السمعة الطيبة والسلوك القويم من خلال الحرص على مجالسة الصالحين، إذ المرء على دين خليله، وهو من معاني الطهارة المهنية.
- 6- وقوله ﷺ: (من غش فليس منا). فالترفع عن الغش من خلق الطهارة المهنية، ويحقق لصاحبها السمعة الطيبة.

مظاهر الطهارة المعنوية عند الفقهاء:

تكلم فقهاؤنا عن الطهارة المهنية التي تعني السمعة الطيبة، والسيرة الحميدة، وجودة الأداء والإتقان، وإن لم يسموها بهذا الاسم. وسنعرض فيما يأتي أمثلة من باب القضاء على سبيل التمثيل والبيان وليس الحصر:

- بطلان تولية الفاسق القضاء: قال فقهاؤنا: لا يجوز تولية الفاسق القضاء مع وجود القاضي العدل، وإن تم ذلك فهو باطل، وذلك حفاظاً على سمعة القضاء وسمعة القاضي من جهة، ولتحقيق جودة الأداء في الحكم، وإقامة العدل بين الناس من جهة أخرى، ولا يخفى أنهما من خصال الطهارة المهنية.

- تحريم تولية الجاهل القضاء: قال فقهاؤنا: يحرم تولية الجاهل القضاء مع وجود العالم؛ للحفاظ على جودة الأداء، وتحقيق العدالة، وهي من خصال الطهارة المهنية.

- كراهة تولية المفضول القضاء: قال فقهاؤنا: يكره تولية المفضول القضاء مع وجود الفاضل (أو الأفضل)؛ للحفاظ على جودة الأداء أيضاً، وتحقيق الطهارة المهنية.

ومثل هذه المسائل نجدها أيضاً في باب الإمامة في الصلاة، وفي الولاية في النكاح، وفي الولاية على المال للقصر (كالمجنون والسفيه واليتيم)، وفي ناظر الوقف، وفي ولاية الحسبة وغيرها كثير.

ومن هذا الباب ما تطلبه جهات العمل أو التعاقد من المدرس أو الموظف أو الطبيب شهادةً بحسن سلوكهم. ومنه ما نجده في بعض المواثيق من النص على أنه يفصل من العمل من يرتكب ما يخل بالأداب العامة في مكان الوظيفة، كالسرقة مثلاً، أو جريمة تمس الشرف أو الأخلاق أو الأمانة وهكذا.

انتهاء المجازرة التاسعة

المحاضرة العاشرة

خلق الاستقامة المهنية

معنى الاستقامة: الاستقامة لغة: مشتقة من القيام، وتعني الثبات والدوام والملازمة والاستمرار على الشيء، كما أنها تفيد معنى الاعتدال والاستواء. فمن الأول قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِنَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْمُتَّقِينَ ﴾، أي: فما استمر وثبت أولئك المشركون معكم على العهد، فاستمروا أنتم معهم واثبتوا. ومن الثاني قول النبي ﷺ للمؤمنين خلفه في صلاة الجماعة: (أقيموا صفوفكم). أي اعتدلوا واستووا ولا تختلفوا.

والاستقامة المهنية في الاصطلاح: لا تخرج عن معناها اللغوي، أي أنها تفيد الاعتدال في أداء المهنة من جهة، وملازمة المهنة والوفاء بمصالحها من الطاعة والمشورة والصدق من جهة أخرى.

شروط الاستقامة المهنية:

- لكي تتحقق الاستقامة المهنية (أي الاعتدال والاستقرار والوفاء بمصالحها) لابد من توافر الشروط التالية:
- 1- حرص كل واحد من الطرفين على الآخر:** أي أن كل واحد من طرفي العقد (العامل ورب العمل) مطالب بالتعلي بالصفات الأخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تغرس في نفس صاحبه الثقة والطمأنينة، وتشعره بحرصه على الاستمرار في التعاقد معه. وقد حث الشرع على هذار ففي الحديث القدسي يروي النبي ﷺ عن ربه عز وجل: "أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانها خرجت من بينهما".
 - 2- مطاوعة الزملاء:** فالثبات والاستقرار والاستمرار في المهنة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان كل واحد يراعي مشاعر صاحبه، ويحترم رأيه، ويتنازل له عن بعض ما يراه، وفي بيان أهمية ذلك نجد النبي ﷺ، يوصي به أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل حين أرسلهما إلى اليمن، فيقول لهما: "يسراً ولا تُعسراً، وبشراً ولا تُنفراً، وتطواعاً ولا تختلفاً".
 - 3- طاعة الرؤساء:** إن طاعة الرؤساء في المهنة ضرورة لا بد منها، وإلا كانت الفوضى، وكان الاضطراب، وكان الإضرار بالمهنة واستقرارها ومصالحها، ومن ثم نجد أن القرآن الكريم يأمر بالطاعة ولاة الأمر فيقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾.
 - 4- عدم التغيب عن العمل إلا في حالات الضرورة:** إذ التغيب عن العمل يضر به، ويتنافى مع مصالحه بلا شك، والعقود أو الأنظمة والقوانين تعاقب على ذلك، غير أن الفرد قد يتغيب لظروف خاصة تواجهه، ويكون معذوراً بهار، والمطلوب منه هنا أن لا يتوسع في ذلك، ويجعل مصلحة العمل نصب عينيه، لأنه من مقتضى الوفاء بالعقود، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾.
 - 5- الالتزام بمنهج الشورى:** الالتزام بمنهج الشورى وخصوصاً في الوظائف التي تصنع السياسات المهنية، وتضع الخطط، مطلب ضروري للاستقامة المهنية، وإلا كان الوقوع في شرك الاستبداد بالرأي، وتحكيم العقل الواحد، والرؤية الواحدة، وهو ما ينعكس سلباً على مصلحة العمل واستقراره، ومن هنا فقد أخبرنا الله أن الشورى من صفات المجتمع المسلم، تنبيهاً إلى أهمية الالتزام بهار، فقال تعالى: ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾. بل إن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ بالشورى، فقال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ وإذا كان النبي وهو المعصوم والمسدد بالوحي مطالباً بالشورى، فكيف بغيره؟! لا شك أنه مطالب به من باب أولى.

6- الالتزام بالصدق: الالتزام بالصدق ضرورة لا بد منها لتحقيق الاستقامة المهنية, إذ لا يمكن للمهنة أن تستقر وتستمر وتتحقق مصالحها من غير الاتصاف بالصدق, قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ التوجيه الفقهي لخلق الاستقامة المهنية: ما أسلفناه في حديثنا عن الطهارة المهنية من ضرورة توافر الحد الأدنى منها يقال هنا أيضاً وفي كل خصال أخلاق المهنة, فالحد الأدنى منها لا بد منه, وقد نصت عليه القوانين والعقود, فخرجت من مجرد خصال أخلاقية إلى واجبات ملزمة, يترتب على الإخلال بها مسؤولية قضائية. غير أن القوانين والعقود لن تحيط بكل خصال الاستقامة المهنية, لأن العقود تستحدث باستمرار والوقائع تتجدد دائماً, ومن ثم كانت الحاجة إلى المزيد من هذا الخلق, بحيث يتحقق الغرض منه. ونبه هنا أيضاً إلى ما أسلفناه في خلق الطهارة المهنية من أن:

- الاستقامة المهنية تختلف في بعض جوانبها من مهنة إلى أخرى, أي أن الاستقامة المهنية المطلوبة من القاضي تختلف في بعض جوانبها عن المطلوبة من الطبيب أو التاجر أو المدرس.
- كما أننا لا نبحت هنا إلا في الاستقامة ذات العلاقة بالمهنة وما يؤثر فيها, ولا شأن لنا بعلاقاته الأسرية أو الاجتماعية.

أدلة الاستقامة المهنية:

- دلت آيات وأحاديث كثيرة على طلب هذا الخلق من المسلم من ذلك:
- قول الله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْفُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وجه الدلالة في الآية أنها تطالب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بالاتصاف بخلق الاستقامة صراحة, وهي عامة, فيدخل فيها الاستقامة المهنية أيضاً؛ لأنها فرع عنها.
 - قوله تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أي أن هؤلاء العباد المؤمنين الصالحين الواقفين عند حدود الشرع يتصفون بالاعتدال حتى في حالة الإنفاق في أوجه البر والخير, ويتجنبون الإفراط والتفريط لمنافاتها لخلق الاستقامة, وإذا كان هذا الاعتدال مطلوباً في الإنفاق في سبل الخير - مع حث الشرع عليه - فالن يكون مطلوباً في غيره من الأمور المباحة من باب أولى.
 - قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ وقد سبق ذكره في الشروط, وكذا ما ورد في طاعة ولاة الأمر, والالتزام منهج الشورى, وغيرها من الآيات التي تحث على هذه القيم الأخلاقية كثير.
- يضاف إليها أنها جميعاً قد تأكدت بأحاديث شريفة واردة في معناها تدل على طلب تلك الخصال الخلقية من ذلك:
- قول الرسول ﷺ لسفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه حين جاء إليه يقول: يَا رَسُولَ اللَّهِ, قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: "قُلْ: أَمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَمْتُ" فقد أمره الرسول ﷺ بالاستقامة من غير تخصيص بجانب معين من جوانب الحياة, فيكون شاملاً ومستغرقاً لجميعها.
 - قول الرسول ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا, وإن أمر عليكم عبد حبشي ما أقام فيكم كتاب الله". وهو يدل على وجوب طاعة الرئيس, وإن لم يكن يراه أهلاً لذلك المنصب.

مظاهر الاستقامة المهنية عند الفقهاء:

تكلم الفقهاء عن مظاهر الاستقامة في بعض المهن كالحكم والقضاء والمعاملات المالية، وحذروا من الخصال التي تتنافى مع خلق الاستقامة المهنية، وفيما يلي ذكر لبعض هذه المظاهر:

✓ **العدل في المعاوزات المالية:** الأصل في المعاوزات المالية أنها تقوم على التراضي بين طرفي العقد، والأصل في الطرفين أنهما عاقلان بالغان راشدان يدركان مصلحتهما، ومن ثم فإن الشرع يتركهما لإرادتهما واتفاقهما، ولا يتدخل بينهما، إذ ليست مصلحة أحد الطرفين بأولى من الآخر، إلا أن بعض الأشخاص قد يتعرض للخديعة أو الاستغلال من الطرف الآخر لظروف خاصة، فعندها يتدخل الشرع ليحمي الطرف الضعيف، ومن هذا الباب ما يحصل للمسترسل. والمسترسل هو: الشخص الذي يتصف بسلامة السريرة، ويجهل قيمة السلعة، ولا يحسن المساومة، فيطمئن إلى صدق البائع، ويستسلم له، فيستغل البائع ذلك فيه، فيبيعه بغبن فاحش (أي بزيادة كبيرة لا تكون عادة بين المتبايعين، وإنما تحصل هنا استغلالاً لحالة المشتري واسترساله) فقد قال الرسول ﷺ في النهي عن ذلك: "غبن المسترسل حرام"، وفي بعض الروايات: "ربا". أي أن خداعه واستغلاله حرام شرعاً، وأن تلك الزيادة ربا، ولا تحل له. وقد ورد أن أناساً أخبروا النبي ﷺ عن رجل يُستغل ويُغبن (أي يُخدع) في بيعه، فقال له النبي ﷺ: "إذا بايعت فقلْ لَّا خِلَابَةَ"، والخلافة هي الخديعة. أي أنني اشتريت منك بشرط أن لا تكون قد خدعتني، فإذا تبين أنك قد خدعتني، فلي الخيار في إبطاله. ولا شك أن هذا الخداع وهذا الاستغلال منافٍ للأخوة الإيمانية، وخارج عن العدل الذي جاء به الشرع، ومصادم لخلق الاستقامة المهنية.

✓ **العدل في المكيال والميزان:** قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ...﴾. فالملطوب هو العدل بإطلاق، في جميع مجالات الحياة، ومع جميع الناس، مهما اختلف الزمان أو المكان أو الجنس أو الدين. ومن ذلك العدل في المكيال والميزان، فقد ورد التأكيد عليه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، لأهمية المال وخطورته، وتطلع النفوس إلى المزيد منه، بل إن سورة من سور القرآن الكريم سميت باسم المطففين، أي المتلاعبين بالمكاييل والموازين، فحذرت من هذا الفعل أشد التحذير، وخوفتهم من المصير الأليم الذي ينتظرهم في القيامة. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فالعدل من خلق الاستقامة المهنية، والتطفيف في المكاييل والموازين ينافيه، ويجب الابتعاد عنه.

✓ **الالتزام بمتطلبات المهنة وبأدائها على وجهها المطلوب:** أجمع الفقهاء على وجوب الالتزام بأداء المهنة على وجهها المعروف في صور المعاوزات المالية، وعدم الإخلال بمتطلباتها اللازمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ولا يخفى ما لهذا من أثر طيب وإيجابي على تحقيق الثبات والدوام والاستقرار للمعاملات، وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية.

✓ **الشورى:** ويمكن تعريف الشورى بأنها مراجعة الآخرين من أهل الاختصاص والخبرة؛ لأخذ رأيهم في الموضوع الذي ينظر فيه، ثم العمل بموجبه. وهي من خصال خلق الاستقامة المهنية، ومطلوبة بصورة أكيدة كما أسلفنا في الشروط. قال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ومن يقرأ في سيرة الرسول ﷺ أو سير خلفائه الراشدين رضوان الله عليهم يقف على صور كثيرة منها، ومن وقائع متنوعة في السلم والحرب، في القضاء والإدارة والتشريع، وكلها تجسد مبدأ الشورى الذي كان يلتزم به الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم في حياتهم. وفي هذا القدر من الأمثلة كفاية لتدليل على أهمية هذا الخلق في الدين والدنيا.

انتهاء المحاضرة العاشرة

المحاضرة الحادية عشر

خلق التعاون المهني

معنى التعاون المهني:

التعاون لغة: المساعدة، من عاونه وأعانه إذا ساعده. والمعاون: المساعد. والتعاون المهني في الاصطلاح لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو المساعدة على أداء المهنة. أي المساعدة في إيجاد المهنة، وأداء مهامها بروح الفريق الواحد. وإنما يتحقق ذلك بأكمل صورته بالتزام جميع الأطراف بتسييد معاني الأخوة والاحترام والصبر على المكاره، ثم الارتقاء إلى مراتب التناصح والتنافس الشريف. إذاً فتحقيق التعاون المهني على أكمل وجه يوجب على أطراف المهنة أن يسعوا في واقع مهنتهم إلى تحقيق أمرين اثنين هما:

- تسييد معاني الأخوة والاحترام والصبر على المكاره بين أطراف المهنة من عاملين وأرباب عمل أو رؤساء.
- الارتقاء إلى درجات التناصح والتنافس باعتبارها ثمرة لتسييد معاني الأخوة والاحترام وسياسة الصبر.

شروط التعاون المهني:

لتحقيق معاني الأخوة والاحترام والصبر والتناصح والتنافس الشريف يجب توافر الشروط التالية:

- 1- **استحضار معنى الأخوة مع زملاء المهنة:** قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ وهذه أولى وأهم الشروط لتحقيق التعاون المهني، إذ تكاد الشروط الأخرى تكون نابعة، ومتفرعة عن هذا المعنى، فالأخوة تستلزم المحبة والسماحة والنصح وغيرها، وقد بين الرسول ﷺ تلك المعاني في قوله: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه".
- 2- **إنكار الذات:** إنكار الذات والترفع عن الأنا من ضرورات التعاون المهني، وبقدر ما يستطيع المرء التخلص من هذا يكون استعداده للتعاون أكبر، ويكون محبته للخير للأخرين أعظم، وقد جعل الرسول ﷺ ذلك دليلاً على استكمال الإيمان فقال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه".
- 3- **السماحة في المنهج:** عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى". فالسماحة وكرم النفس من ضرورات التعاون المهني، ومن دونها يكون التشاجر والتباغض، والتدابير.
- 4- **الصبر على المكاره:** فمن غير الصبر لا يمكن أن يتحقق التعاون المهني، إذ لا بد أن يجد كل واحد من زميله أموراً لا تعجبه، فإن لم يوطن نفسه على الصبر، كان الصدام. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾.
- 5- **بذل النصيحة:** عن تميم الداري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "الدين النصيحة"، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم". فالتعاون يستدعي بذل النصيحة ضرورة.
- 6- **المنافسة الشريفة:** التنافس الشريف فيما هو لصالح المهنة ولما فيه خيرها أمر مفيد ومطلوب، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: "من قتل قتيلاً، فله سلبه". وما ذلك إلا للتشجيع والمنافسة والحث على المزيد من البلاء في المعركة.

التوجيه الفقهي لخلق التعاوه المهني:

كما أسلفنا في الخصال السابقة (الطهارة المهنية والاستقامة) فإن الحد الأدنى من هذا التعاون أيضاً ضروري وإلزامي بنص القانون أو العقد، والإخلال به يستوجب مسؤولية قضائية، ويبقى ما فوقه مطلوباً من جهة الأخلاق، ويستوجب مسؤولية أخلاقية. وأيضاً ننبه هنا إلى ما أسلفناه من قبل من أن التعاون المطلوب في كل مهنة بحسب طبيعتها:

- فالتعاون المطلوب بين المدرسين يختلف عن التعاون المطلوب بين الطبيب والمريض، أو طاقم الطائرة... وهكذا.
- كما أننا لا شأن لنا بالجوانب الأخرى التي لا تتصل بالمهنة كالتعاون بين أفراد الأسرة أو الجيران ونحو ذلك.

أدلة التعاوه المهني:

يدل لخلق التعاون المهني أدلة كثيرة من القرآن والسنة، وفيما يلي نذكر بعضاً منها:

- 1- قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَكُنَّا تَعَاوَنًا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ فالتعاون على كل ما هو من البر والخير مطلوب، والتعاون على كل ما فيه نفع العباد مطلوب، ولا شك أن التعاون في أداء مهام المهنة أحد صورها.
- 2- وقال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾. فهذا ذو القرنين وهو من هو في قوته ودهائه يطلب الإعانة لإنجاز ما هو مطلوب منه، فالفرد قليل بنفسه، كثير بإخوانه.
- 3- وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾. وقد سبق أن بينا في الشروط معاني هذه الأخوة وضرورتها للتعاون المهني.
- 4- وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. فالآية لا تأمر بالصبر فحسب، بل بالمصابرة أيضاً، وهي أشد وأبلغ من الصبر، حيث فيها حمل النفس على المزيد من التحمل والثبات. وبالجملة فهذه الآيات واضحة الدلالة في العث على التعاون والأخوة والصبر التي هي من جملة خصال خلق التعاون المهني، والآيات في معناها كثيرة.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة في الموضوع:

- قول الرسول الله ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم". ومعلوم أن ممارسة المهنة تستلزم المخالطة، إذ لا يتصور ممارستها بمعزل عن الناس، وإذا تمت المخالطة فلا بد أن ينتج عنها الأذى بقصد أو بغير قصد، ومن ثم كان الصبر مطلوباً كما حث عليه الحديث الشريف. وقوله ﷺ: "الدين النصيحة"، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم". وبذل النصح وجه من وجوه التعاون على الخير، وعلى ما فيه النفع والفائدة. وقوله ﷺ: "المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربة يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة". فالحديث يبين الواجب الأخلاقي على كل مسلم تجاه إخوانه من المسلمين، فلا يظلمهم، ولا يتخلى عنهم، بل يسعى في قضاء حوائجهم، وتفريج كربهم، وتحقيق ستر لهم.

مظاهر التعاون المعني عند الفقهاء:

هناك عقود ومهن كثيرة يتجلى فيها مظاهر التعاون المهني، ذكرها الفقهاء في مصنفاتهم، وسنشير إلى بعض منها فيما يأتي:

❖ الإقالة في العقود:

والإقالة تعني فسخ العقد وإبطاله برضا الطرفين؛ بناءً على طلب من أحدهما بعد إبرام العقد ولزومه وترتب آثاره؛ أي أن أحد الطرفين يندم ويريد إبطال البيع أو الإجارة أو نحوهما من بعد إبرام العقد ولزوم آثاره، فيستجيب له الآخر؛ تقديرًا لظروفه، ومراعاة لحق الأخوة التي قررها الشرع. وقد أجمع الفقهاء على أن الإقالة مندوبة؛ لأنها من باب التعاون على البر، ويقول فيها ﷺ: "من أقال مسلماً عثرته، أقال الله عثرته يوم القيامة". والإقالة قد تكون بين متعاقدين في عقد بيع أو إجارة، أو مريض مع طبيب، أو مهندس أو شركة للمقاولات مع من يريد إنشاء مبانٍ أو محلات تجارية. ولا شك أن ذلك من باب التعاون على البر، والاستجابة لدواعي الأخوة، وهما من خصال التعاون المهني.

❖ عدم الخطبة على أخيه وعدم البيع على بيعه:

قال ﷺ: "لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه، ولا يبيع على بيع أخيه، إلا بإذنه". أي أن الشرع ينهى عن المزاحمة والمنافسة غير الشريفة، والتي من شأنها أن توغر الصدور، وتجلب الكراهية والحقد، لما في ذلك من المناقاة لحقوق الأخوة والتعاون التي يجب أن تسود العلاقات بين الناس، فالرجل الذي يقدم على خطبة امرأة، من بعد أن تمت خطبتها من قبل آخر، وتم الاتفاق بينهما، يُقدم على عملٍ مشين، وكذا من يأتي ويسعى لنقض عقد بيع قد تم وأبرم، فيقول للمشتري: ردّ عليه سلعتي وأبيعك مثلها بسعر أرخص، أو أبيعك أحسن منها بنفس السعر! مثل هذا العمل ينافي خلق الأخوة والتعاون، وعلى العكس من ذلك يؤدي إلى التدابر والتنافر، والتنافس غير الشريف، ولا شك أن الشرع لا يرضى لاتباعه مثل هذه الأخلاق المشينة والمذمومة، فالله عز وجل يجب معالي الأمور، ويكره سفاسفها.

❖ التصريح بما في السلعة من العيوب:

لا خلاف في أن بذل النصح واجب للمسلم على أخيه المسلم، فقد كان رسول الله يأخذ على الناس في البيعة بذل النصيحة كما يأخذ عليهم الفرائض، يقول جرير: "بايعت رسول الله على السمع والطاعة، فشرط عليّ: والنصح لكل مسلم". وهذا الخلق يتطلب من البائع أن يذكر كل عيب يعلمه في سلعته، أو يخبر المشتري بأنها مغشوشة مثلاً، فيبذل له النصيحة، وإلا كان كاتماً للعيب، غاشاً له، والنبي ﷺ يقول: "البيعان بالخيار، ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما". فكتمان العيب محرم، ويمحق بركة البيع في الدنيا، ويُعرض فاعله للعذاب في الآخرة. قال بعض أئمة السلف: (لا يحل لامرئٍ يبيع سلعة يعلم بها داءً إلا أخبره). ويقال مثل ذلك في المشتري، إن وجد أن السلعة تستحق أكثر مما يطلبه البائع، وأن صاحبها يجهل قيمتها، فالذي يتطلبه الخلق القويم أن يخبره بذلك، وقد ورد أن جرير بن عبدالله -راوي الحديث- اشترى فرساً فطلب صاحبها منه مائتي درهم، فوجد جرير أن الفرس تستحق أكثر، وأنه يجهل قيمتها، فزاده في سعرها حتى أوصلها إلى ثمان مائة درهم، ثم ذكر الحديث السابق "والنصح لكل مسلم".

انتهاء المحاضرة الحادي عشر

المحاضرة الثانية عشر

خلق الأمانة المعنوية

تعريف الأمانة المعنوية:

الأمانة لغة: عكس الخيانة، وتفيد الأمن والاطمئنان وعدم الخوف. وتطلق أيضاً على كل ما عهد به إلى الإنسان من حقوق أو واجبات أو حاجات للآخرين؛ فيطالب بالحفاظ عليها وإيصالها إلى ذويها سالمة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾. وقال أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. والأمانة المهنية في الاصطلاح لا تخرج عن معناها اللغوي، وهي تعني الحفاظ على المهنة بحفظ عهدها، وعدم الخيانة فيها، وتتمثل في أصول ثلاثة هي:

- ما يخص حقيقة المهنة: وذلك بالحفاظ على خصوصية العلاقة بين أطراف المهنة بحسب طبيعة المهنة، والحفاظ على كل ما يعرف عند الناس بأنه إفشاءه نقض للعهد، وخيانة لأسرار المهنة.
- ما يخص التصرف في المهنة: وذلك بالحفاظ على مصالح المهنة الحقيقية، وعدم تقديم مصالحه الشخصية على مصالح المهنة؛ فلا يسرف في الإنفاق فيما يستلزم الإنفاق، ولا يستغل مهنته أو منصبه من أجل مصالحه الشخصية.
- ما يخص وسيلة المهنة: سواء في الوصول إليها أو في أدائها؛ فيجب أن تكون مشروعة لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، ولوسائل حكم المقاصد؛ فلا كذب ولا غش ولا نفاق ولا غيبة ولا نيممة.

شروط الأمانة المعنوية:

يمكن إجمال أهم الشروط التي يجب توافرها لتحقيق الأمانة المهنية، في الآتي:

الشرط الأول:

أن يحافظ جميع الأطراف على أسرار المهنة؛ مما يعد إفشاءه نقضاً للعهد.

فمثلاً الطبيب مطالب بالحفاظ على نوعين من الأسرار:

- أ- ما يتعلق بجهة عمله كالمستشفى فلا يفشي أسرارها.
- ب- ما يتعلق بالمريض ووضعه الصحي مما يعد سراً فلا يفشيه.

وعليه فلا يدخل في أسرار المهنة:

- 1- ما لا علاقة له بالمهنة؛ كأن يعترف المريض أمام الطبيب بأنه قد ارتكب جريمة أو جنائية في حق آخرين، أو أنه اعتدى عليهم، فهذه لا علاقة لها بالأسرار الطبية ويجب الكشف عنها إذا تعلق بها حقوق للآخرين.
- 2- ما لا يعد سراً بين الناس، ولا يعد الكشف عنه نقضاً للعهد؛ كأن يذكر اسم المريض أو مهنته أو مكان إقامته، وما أشبه ذلك.
- 3- ما يعد سراً، ولكن إفشاءه في تلك الحالة مطلوب لجهات معينة؛ لتعلق مصالحهم بالكشف عنها. وذلك عند وجود نزاع حول حق يتوقف البت فيه على الكشف عن حقيقة وضع الفحوصات الطبية التي تم إجراؤها؛ ففي هذه الحالة يجب الكشف عنها للأطراف المتنازعة، وإن كانت تبقى أسراراً بالنسبة إلى غيرهم، لأن الكشف إنما هو للضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، ولا ضرورة للكشف عنها أمام غيرهم.

والمستشفى تحتفظ بنوعين من الأسرار:

- أ- ما يتعلق بالطبيب من حيث أجرته أو الجزاءات الإدارية الواقعة عليه مثلاً.
- ب- ما يتعلق بالمريض؛ مما يعد كشفه نقضاً للعهد، ومضراً به.

والمريض أيضا يحتفظ بنوعين من الأسرار:

- أ- ما يتعلق بالمستشفى، كتخفيض الأجرة مثلاً، ومراعاة ظروفه الخاصة.
- ب- ما يتعلق بالطبيب، كأن يكون قد عامله بصورة مخصوصة، مثل السماح له بمراجعته خارج أوقات الدوام الرسمي، أو مراجعته في بيته، أو غير ذلك؛ مما يعد الكشف عنه مزعجاً للطبيب.

الشرط الثاني:

أن يلتزم أصحاب الشأن في المهنة الرشد في التصرف من غير إسراف أو استغلال. فمثلاً: الطبيب لا يستغل ما وضع تحت تصرفه من الأجهزة في سبيل معالجة أصحابه وقرابته من غير إذن صاحب العمل، كما أنه لا يسرف في استعمال الأدوات الطبية التي وضعت تحت تصرفه. والمستشفى لا تستغل الطبيب في طلبه خارج أوقات دوامه في سبيل مصالحها، أو الكشف على مرضى غير مدرجين في قائمة عمله. والمريض لا يستغل فرصة وجوده مع الطبيب في السؤال عن أعراض مرضية يعاني منها بعض من يخصونه ... وهكذا.

الشرط الثالث:

أن يسلك أصحاب الشأن في المهنة السبل المشروعة التي تحفظ شرف الوسيلة وشرف المقصد؛ فلا مجال للكذب ولا للفساد ولا للغش ولا الغيبة ولا النميمة.

التوجيه الفقهي لخلق الأمانة المعنوية:

ما ذكرناه سابقاً في الطهارة المهنية وما بعدها يتكرر هنا، ومن ثم فلا داعي لإعادته مرة أخرى. بمعنى أن الحد الأدنى من الأمانة المهنية ضرورية، وقد تم التنصيص عليه من خلال القوانين والعقود؛ ومن ثم فإننا دراستنا هنا تقتصر على ما وراء ذلك. كما أن الأمانة المهنية تختلف من مهنة إلى أخرى، فما يطالب به الطبيب يختلف عن المدرس والمهندس وهكذا، وكذلك لا شأن لنا بما وراء المهنة كالبئب والشارع ونحوهما. الأدلة في الحث على الأمانة المهنية: يدل لخلق الأمانة المهنية آيات عديدة من كتاب الله وأحاديث كثيرة من سنة ﷺ، منها ما يلي:

- 1- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. فالآيتان تأمران بالحفاظ على الأمانات وأدائها على وجهها المطلوب، والأمانة المهنية جزء منها.
- 2- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾. وفي هذا ما يدل على أنه ما كان ينبغي لهن الإفشاء بالسر الذي أسره النبي ﷺ لهن.
- 3- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾. فهذه الآيات تنهى عن صفات خلقية ذميمة، مثل الكذب والغش والغيبة واللمز، وكلها تتعارض مع خلق الأمانة التي يجب التحلي بها، ومنها الأمانة المهنية.
- 4- قال رسول الله ﷺ في صفات المنافقين: "إذا أؤتمن خان". وقال ﷺ: "أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك". والحديثان في معنى الآيات السابقة، ويؤكدان المعنى ذاته. قال ﷺ: "مَنْ حَدَّثَ فِي مَجْلِسٍ بِحَدِيثٍ فَالْتَفَتَ، فَهِيَ أَمَانَةٌ". أي أنه لا يجوز نقل كلام شخص وإفشاؤه، حتى وإن لم يطلب كتمان صراحة، أو يقل: هذه أمانة، بل يكفي أن يفهم منه ذلك بمجرد الإشارة والإيحاء؛ كالاتفاتة التي تومئ إلى أن صاحبها يريد أن يخفي الخبر عن الآخرين، ولا يريد أن يسمعه غير من يتحدث إليه.

مظاهر الأمانة المعنوية عند الفقهاء:

ذكر الفقهاء كثيراً من الأحكام الفقهية ذات العلاقة بخصال الأمانة المهنية، منها:

أولاً: المنع من استغلال المهنة: والمقصود باستغلال المهنة: هو تسخيرها لتحقيق مصالحه الشخصية، أو لما يمكن أن تحقق له ذلك. ومن صورها الفقهية قبول الهدايا، فقد حذر الشرع من استغلال المهنة فحرم الرشوة، وحرم كذلك هدايا العمال والمسؤولين التي تأخذ صورة الهدية لكنها في حقيقتها رشوة، إذ لولا ذلك لما كانت تهدى إليه، ومن هنا أنكر الرسول ﷺ على ابن اللببية فعله حين استعمله على الزكاة (ليجمعها) فجاء وقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي! فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: " مَا بَالُ عَامِلٍ أْبَعْتَهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ، حَتَّى يَنْظُرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَأ؟ ثُمَّ حَذَرَ مِنْ عَقُوبَةِ هَذَا الْفِعْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ". وقال في حديث آخر: "هدايا العمال غلول". وقال أيضاً: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخبطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة". والغلول في الأصل: أخذ شيء من مال الغنيمة أو المال المشترك قبل القسمة، وسمي هذا غلولاً؛ لما فيه من نقض العهد، وخيانة الأمانة.

ثانياً: المنع من الغش في المهنة: والغش في المهنة يعني التدليس والخداع في أداؤها بما يوهم السلامة، أو كثرة راغبها لإغراء الآخرين بها، أو رفع الأجر عليهم. والأصل الفقهي الذي يتأسس عليه المنع من التدليس والخداع في المهنة هو تحريم التصرية. والأصل الفقهي الذي يتأسس عليه المنع من ادعاء كثرة الطالبين للمهنة هو تحريم النجش.

أما التصرية فهي: ترك جلب الدابة مدة من الزمن، حتى يجتمع قدر كبير من اللبن في ضرعها، فيتوهم الراغب في الشراء أنها كثيرة اللبن، فيقدم على شرائها. وهذا عمل محرم بلا خلاف؛ لما فيه من خداع وغش، وإخلال بالأمانة المهنية. وقد وردت الأحاديث في النهي عن الغش بصورة عامة، وعن التصرية بشكل خاص؛ فقال ﷺ: " لا تَصُورُوا الإبل والغنم ". ويلحق بهذا كل عمل من شأنه خداع الآخرين بالشيء، وإغراؤهم به، مع كون الحقيقة على خلاف ذلك، كأن يستخدم أصباجاً أو ألواناً خادعة تخفي حقيقة وضع السلعة، أو نكهات تخفي حقيقة الطعم الأصلي لها، أو أنواعاً من زيوت المحركات لإخفاء وضع محرك السيارة ساعة من الزمن حتى يتم بيعها، وهكذا.. وهذا كله تدليس وغش محرم، ويخالف الأمانة الخلقية.

وأما النجش فهو: أن يبدي الشخص رغبة في شراء سلعة، لا ليشتريها، بل لإغراء غيره بها، ولإيهام بكثرة الراغبين فيها. وهو محرم شرعاً، ومن أنواع الغش، لما فيه من خداع الآخرين، والتغريير بهم. وقد وردت أحاديث نبوية شريفة في النهي عن هذا الفعل، منها قوله ﷺ: " ولا تناجسوا ". ويلحق به ما يشبهه من أنواع الغش والخداع مما يستثير الناس، ويغريهم بالشراء.

ثالثاً: الحجر على السفيه: والسفيه هو الذي لا يحسن التصرف في المال، ولا يقدر عواقب تصرفاته، فيقدم عليها بدافع الطيش والهوى، وبعيداً عن العقلانية والرشد الذي هو إصلاح المال وتنميته والحفاظة عليه. إذا فالسفيه عكس الرشيد، والسفه عكس الرشد. ومن صور السفه مثلاً: أن يستهلك الممرض أضعاف المطلوب من الشاش والمراهم في معالجة جرح مريض مثلاً. أو أن يستهلك العامل أضعاف ما يحتاج من الوقود للسيارة، أو الأسلاك لتمديدات كهربائية. ونحو ذلك. وقد طالب الشرع بالحجر على السفيه ومنعه من التصرف بأمواله، حفاظاً عليها من الضياع والتبديد فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾. ولا شك أن النهي عن هذه التصرفات (الغلول والرشوة والتصريية والنجش والإسراف) من شأنها أن تؤسس لخلق الأمانة المهنية.

انتهاء المحاضرة الثانية عشر

المحاضرة الثالثة عشر

خلق المحبة المعنوية

المقصود بالمحبة المعنوية:

المحبة تعني الميل والود والإيثار قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَنَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَجَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ أي؛ إن اختاروا وآثروا وقدموا الكفر على الإيمان. ولحب أنواع متعددة منها:

1. **حب عقيدة وإيمان:** وهو حب الله، وحب رسوله ﷺ، وحب آل بيت رسول الله، وحب قراءة القرآن، وحب الإنفاق في سبيل الله، وحب الجهاد... وهكذا. ومن ذلك ما في الحديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".

2. **حب فطرة وطبع:** كحب الولد، وحب المال، وحب الحياة، وحب الطيب، وحب المناظر الجميلة... وهكذا، وهي أشياء يستوي في حبها المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، والحضري والبدوي، والمتعلم والجاهل، فالجميع مفطورٌ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ ﴾. فالآية لم تقل: زين للمؤمنين، أو للنساء، أو للرجال، بل قالت: للناس فدللت على أن الجميع مفطورٌ عليه.

3. **حب تقدير وإعجاب:** كحب عقبة بن نافع، أو عبدالرحمن الداخل، أو صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح لبطولاتهم والفتوحات التي أجراها الله على أيديهم، وحب حاتم الطائي وابنه عدي لكرمهم، وحب عنتره لشجاعته، وحب آخر للنجاحات التي حققها في حياته، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾.

4. **حب مصلحة ومنفعة:** كحبنا لمن قدم إلينا يد العون والمساعدة، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها" ويقول الشاعر أبو الفتح البستي في قصيدته (عنوان الحكم):
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم *** فطالما استعبد الإنسان إحسان

5. **حب الرذائل وحب الشماتة:** كحب الشر للأعداء، أو حب الفواحش والرذائل، ومن صور ذلك ما أخبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وما يتعلق ببحثنا هو النوع الرابع، أي: الحب المبني على المصلحة والمنفعة.

أصول المحبة المعنوية:

إن المحبة المهنية تعني الميل تجاه المهنة لتحقيق أصول المحبة الثلاثة:

- التوادد بمراعاة آداب اللياقة في علاقات المهنة.
- التراحم بالإحسان إلى زملاء المهنة والمنتفعين منها.
- التعاطف من خلال الإيثار لمصلحة المهنة.

هذه الأصول الثلاثة جمعها الرسول ﷺ في قوله: (مثل المؤمنين في تواددهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى). هذه الأصول الثلاثة هي جسور المحبة التي تجعل من الجماعة كأنها شخص واحد، وكذلك تجعل من الشخص الواحد ومهنته وكأنهما شيء واحد. فإذا تحقق هذا الاتحاد أمكن القول بأن خلق المحبة المهنية متحقق بالفعل.

شروط المحبة المعنوية:

يتحقق خلق المحبة المهنية إذا توافرت الشروط التالية:

- 1- **تقديم مصلحة المهنة على سائر مصالحه الحياتية الأخرى:** بمعنى أن تكون مهنته هي الشغل الأهم له من بين أعماله اليومية الأخرى، فتفكيره في معضمه منصب على كيفية تطويرها بحيث تكون أنفع، وجهده منصب في أكثره على خدمتها بحيث تحقق نجاحاً أكبر، فهي مصدر رزقه، ومستقبلها مستقبله، وسمعتها الطيبة رأس مال له، واستمرارها ونجاحها نجاح له.. وهكذا. وبهذا يكون قد أثبت إخلاصه لمهنته، وتفانيه في حبها، وبذلك يصل إلى إتقانها على النحو الذي يحبه الله ورسوله. فالمدرس الذي يجب مهنته هو الذي يجعل مهنة التدريس شغله الأهم في شؤون حياته اليومية، ويسعى دائماً لتطويرها، ويسخر وقته وجهده وعلمه وعلاقاته بالآخرين في سبيل تطويرها والتقدم بها وإنجاحها، وهكذا الطبيب والمهندس والمحاسب والمحامي... ويقدر محبته لمهنته، يكون تضحيته في سبيل الرقي بها.
- 2- **الانتصار للمهنة بالدفاع عنها وعن العاملين فيها:** وهذه نتيجة حتمية للشروط الأولى، بمعنى أنه إذا أحب مهنته، وكان مخلصاً لها، متفانياً في محبتها، نتج عن ذلك بدهاء دفاعه عنها، وغيرته عليها، وعلى العاملين بها، ورأى أن كل انتقاص لها أو للعاملين عليها، انتقاص له، لأنه يرى فيها نفسه، وسمعته، ومستقبله. وهذه المحبة ستدفعه إلى الوقوف في وجه كل من يشوه سمعتها، أو يسيء إليها، وإن كان من العاملين فيها، لأنه يرى في ذلك حمايتها والانتصار لها، وذلك بالمفهوم الذي نبه إليه الرسول ﷺ حين قال: "أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا (أي عرفناه) فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: "تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ". فإنا عندما أخذنا على يد شقيقي أو ولدي أو صديقي فأنمعه من الظلم، أكون قد نصرته وأحسنت إليه من غير شك، لأنني أنقذته من غضب الله، ومن الوقوع في المعصية، وصنت سمعته وسمعتي بين الناس، وسعيت في إرساء مبادئ العدالة التي بها قامت السماوات والأرض، وكذلك الانتصار للمهنة تكون بالأخذ على يد المسيء إليها حفاظاً على سمعتها، وسمعة العاملين بها، وسعياً لتحقيق نجاح المهنة في بلوغ أهدافها على أكمل وجه.
- 3- **إفشاء السلام لنشر المحبة بين الناس وخصوصاً زملاء المهنة الواحدة:** فالسلام اسم من أسماء الله تعالى، وإلقاؤه يعني تطمين المسلم عليه بأنه لن يجد الأذى أو ما يكرهه أو يخافه من جهته، فهو في أمان منه، وهو بذلك يفتح طريقه إلى قلبه، فتتولد المحبة بينهما، وتمتد جسور التواصل، وفي ذلك يقول الرسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم".
- 4- **طلاقة الوجه بشكل دائم:** وهذه بمثابة التكملة للشروط السابق، إذ ما قيمة السلام بوجه عبوس؟! إن السلام يجلب المحبة، ويجد طريقه إلى القلوب، إذا صاحبتة البشاشة وطلاقة الوجه، لأنها الدليل الأقوى والأوضح على ما يكنه القلب لسامع السلام، ومن ثم جاء الشرع بالحديث عليه فقال الرسول الله ﷺ: "تبسمك في وجه أخيك صدقة". وقال أيضاً: "كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك".
- 5- **الاعتناء بالنظافة الشخصية واختيار الزي المناسب لطبيعة المهنة:** لأن الذوق السليم يجب النظافة، وينفر من القذارة، والشخص النظيف محبوب لدى زملائه يألف ويؤلف، وديننا الحنيف دين الذوق الرفيع، ودين مراعاة المشاعر، ومن هنا حث على الاغتسال لكل تجمع مثل صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وللإحرام بالحج والعمرة، وأمرنا بأن نكون كالشامة بين الناس، وما الوضوء للصلوات والاعتسالات إلا أدلة عملية على مدى حب الدين للنظافة. وفي هذا السياق جاءت الآية القرآنية: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

6- **إكرام ذوي الهيئات:** الإنسان عرضة للوقوع في الخطأ لنسيان، أو إهمال، أو جهل، أو ساعة ضعف، أو غير ذلك من الأسباب، والناس ليسوا جميعاً سواء، فهناك من تردعه الإشارة، وهناك من لا يردعه إلا العقوبة القاسية، وبين المرتبتين مراتب كثيرة، بحسب تربية الشخص، وأخلاقه، واستقامته، وأصالته، وقد نبهنا ديننا إلى مراعاة ذلك، حتى لا نعتقد خطأً وجهلاً منا بمبدأ المساواة فنذهب إلى معاملة جميع الناس بنفس الطريقة فبين أن الخطأ على قسمين: خطأ يستوجب إقامة عقوبة محددة شرعاً وتسمى الحدود، وهذه لا مراعاة فيها، وتقام على الجميع، أياً كانت صفته أو مركزه في المجتمع لخطورة هذا النوع من الخطأ. وخطأ لا حد فيه لأنه ليس بتلك الخطورة، لكنه لا يخلو منها، فهذا يستوجب التعزير. وهنا نجد أن الشرع يميز بين من هو من أصحاب المكانة والوجاهة في قومه، وبين غيره ممن هو ليس كذلك، والسبب هو أن الغرض من هذه العقوبة التأديب والردع لنلا يعيد ذاك الخطأ ثانية، وأصحاب الهيئات يكفيهم التنبيه والإشارة لينتبهوا ولا يعيدوه ثانية، بخلاف غيرهم فتد لا تردعه إلا العقوبة، وهذه العقوبة تتفاوت ما بين الكلمة الزاجرة، والعقوبة الجسدية أو السجن، حسب ما يراه القاضي رادعاً له، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود".

7- **إراحة العاملين في المواعيد والمواعيد والإقامة:** وذلك لأن هذه الأمور تشعره بأنه محل تقدير واحترام المسؤولين عنه، ولا شك أنهم أيضاً سيكونون محل محبته واحترامه وتقديره، قال رسول الله ﷺ موصياً بحسن معاملة العبيد: "إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفوهم فأعينوهم". وإذا كان هذا ما ينبغي له فعله مع عبده، فكيف يجب أن يكون الحال مع حرٍ مثله، وزميله في المهنة! وصدق الله إذ يقول: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾. فالتكريم والإحسان إلى الآخر يجلب محبته وإحسانه.

8- **الإيثار وتقديم مصالح الآخرين:** الإيثار هو أن يحرم الشخص نفسه، ويقدم مصلحة الآخرين وحاجتهم على مصلحة نفسه مع شدة حاجته، وهي مرتبة فوق الإحسان في سلم القيم الأخلاقية، وقليل من الناس من يصل إلى هذه المرتبة، وهي سبب رئيس للفوز بمحبة الله ومحبة العباد، وقد أثنى الله على الصحابة الأنصار لتحققهم بهذا الخلق العظيم، فقال تعالى: ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾. والخصاصة شدة الجوع، أي أنهم كانوا يؤثرون ويقدمون غيرهم على أنفسهم فيما يملكونه من زادٍ مع شدة حاجتهم إليه، وليس يدفعهم إلى ذلك إلا الطمع فيما عند الله. ولا يخفى مدى أهمية هذه الشروط في تحصيل وتحقيق المحبة المهنية.

التوجيه الفقهي لخلق المحبة المهنية:

ما ذكرناه سابقاً في التوجيه الفقهي لخلق الطهارة المهنية وما بعدها يقال هنا أيضاً، ومن ثم فلا داعي لتكراره، أي أن الحد الأدنى من المحبة المهنية ضرورية، وقد تم التنصيص عليه من خلال القوانين والعقود، وبحثنا هنا يتناول ما وراء ذلك. كما أن هذه المحبة المهنية تختلف من مهنة إلى أخرى، فما يطلب من المدرس يختلف في بعض جوانبه عن ما يطلب من الطبيب أو القاضي أو المحاسب. وكذلك لا شأن لنا بما وراء المهنة كالمهنة والشارع. ثم نبهنا هنا إلى أن الأصل في الإنسان أن يختار مهنةً يحبها، وتنسجم مع ميوله وتوجهاته، ويوجد فيها راحته النفسية، إلا أن كثيراً من الناس اليوم لم تعد محبته وميوله للمهنة هي التي توجهه، بل الدخول الأكثر، والسمعة، والمكانة الاجتماعية بين الناس! وهو ما انعكس سلباً على خلق المحبة المهنية، فأصبحنا نجد أناساً يمارسون مهنتهم بغير رغبة منهم، ولا شعور بولاء تجاهها، بل ربما مارسوها وهم لها كارهون.

الأدلة في الحث على المحبة المهنية:

- يدل لخلق المحبة المهنية آيات عديدة من كتاب الله وأحاديث نبوية، نذكر منها:
- قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَوَلَّكَ اللَّهُ الْمَفْلِحُونَ ﴾ . فقد امتدح الله الأنصار لاتصافهم بخلق المحبة والإيثار، فعلى الرغم من أن الله قدم ذكر المهاجرين على ذكرهم، وأعطى المهاجرين من الفضل والشرف أكثر مما أعطاهم، فإنهم لم يتأثروا بذلك، ولم تتمكن دوافع الغيرة والأنانية من التأثير على نفوسهم الطيبة الزكية، فسجل الله لهم تلك الصفة الخلقية الراقية.
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فالآية تشني على المحسنين، والإحسان من خلق المحبة المهنية.
- عن أنس بن مالك، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمُ النَّانُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطَفُ لِحَيْتِهِ مَاءٌ مِنْ وَضُوئِهِ مُعَلَّقٌ نَعْلِيهِ فِي يَدِهِ الشَّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمُ النَّانُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمُ النَّانُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اتَّبَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِي فَقَالَ: إِنِّي لَأَحِبُّتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَحِلَّ يَمِينِي فَعَلْتُ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِي يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ لَيْلَةً أَوْ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ بِشَيْءٍ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا انْقَلَبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ، وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لَصَلَاةِ الْفَجْرِ فَيَسْبِغُ الْوُضُوءَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَا أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ كَدَّتْ أَحْتَقِرُ عَمَلَهُ، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ وَالِدِي غَضَبًا وَلَا هَجْرَةً، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي ثَلَاثَ مَجَالِسٍ: «يَطَّلِعُ عَلَيْكُمُ النَّانُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعْتُ أَنْتَ تِلْكَ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَرَدْتُ أَوْيَ إِلَيْكَ فَأَنْظَرُ عَمَلِكَ، فَلَمَّ أَرَكُ تَعْمَلُ كَبِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتُ، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَلِيْتُ دَعَائِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتُ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي غَلًا لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا أَحْسَدُهُ عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ. فهذا الرجل لم يقدم مقداراً زائداً من العبادة أكثر من غيره بحيث تكون هذه الزيادة هي السبب وراء استحقاقه ذلك الفضل من الله، وتلك الشهادة من رسول الله ﷺ، بل قدم سلامة الصدر من الغش والحسد ونحوه تجاه أحد من المسلمين، وهذه السلامة للصدر هي من أخلاق المحبة المهنية.

مظاهر المحبة المعنوية عند الفقهاء:

- ذكر الفقهاء كثيراً من الأحكام الفقهية ذات العلاقة بخصال المحبة الخلقية، نشير هنا إلى بعض منها:
- **استئذان المرؤوس من الرئيس في المهنة:** اتفق الفقهاء على أن الاستئذان من الرئيس في المهنة مطلوب، ولا شك أنه من خلق اللياقة المهنية، ومن شأنه أن يحقق وينمي المحبة بين الرئيس ومرؤوسيه، كما أن عدم الاستئذان وتجاهل المسؤول فيه ما فيه من الكبر، ويؤدي إلى التنافر والتباغض بين الأطراف، ومن ثم وجدنا الإسلام يعلم المسلمين هذا الخلق الرفيع في أكثر من موضع، من ذلك قول الله تعالى في الحث على الاستئذان بصفة عامة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، وفي الحث على الاستئذان من الرئيس خاصة يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. ودلالة الآية على أدب الاستئذان واضحة جلية، لا تحتاج توضيحاً أكثر.
 - **إفشاء السلام وردد:** أجمع الفقهاء على أن إلقاء السلام مندوب إليه شرعاً، لقوله ﷺ: "أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم". وأما الرد فواجب؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ بِحَسَنٍ فَهَبُوا بِحَسَنٍ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾. فقد أمرت الآية بالرد وجوباً، وعلقت ذلك على حال إلقاء السلام، وأما الإلقاء فلم تأمر به الآية، ومن ثم كان الفرق بين الحائتين، حالة الإلقاء، وحالة الرد، فالأول مندوب، والثاني واجب. ولا يخفى أن السلام عموماً من عوامل زرع المحبة بين الناس، كما أخبر النبي ﷺ، ومن ثم كان مطلوباً شرعاً.
 - **الإحسان إلى زميل المهنة:** قال تعالى: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾. وجه الدلالة أن الله سبحانه أمر المؤمن بالإحسان إلى الجار ذي القربى، وهو من كان بينهما قرابة النسب، وقيل: الزوجية. كما أمر بالإحسان إلى الجار الجنب، وهو الجار الغريب ليس من القوم أو القبيلة، وقد نزل بينهم، وكذلك أمر بالإحسان إلى الصاحب بالجنب، وهو رفيق السفر أو الضيفر، وزميل المهنة لا يقل منزلة عن هؤلاء فيجب الإحسان إليه، والرفق به في المعاملة. يقول الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين: "جملة حق الجار أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طريقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستتر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرخته إذا نابتة نائبة، ولا يفغل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً، ويفض بصره عن حرمة، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجله من أمر دينه وديناه، هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين". وقد وردت نصوص كثيرة من الشرع في بيان حق الجار نكتفي بذكر هذين الحديثين: قوله ﷺ: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه". وقوله ﷺ: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن". قالوا: من يا رسول الله؟ قال: "من لا يؤمن جاره بوائقه". فهذان الحديثان يبينان بجلاء حق الجوار في الإسلام، ويلحق بهما زميل المهنة، لأنه جار في العمل، فينبغي أن يعامل بنفس القدر من الاحترام والرحمة والإحسان التي هي من خصال المحبة المهنية.

انتهاء المحاضرة الثالثة عشر